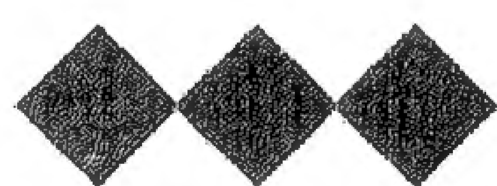
التضامن

فى مواجهة

التحديات



الدكتور أحمد عمر هاشم

دار الشروق

التضَامن

في مواجهة

التحديات

التضامن في مواجهة التحديات

الطبعة الأولى ١٤٢١هـ - ٢٠٠١م

دار الشروق

القاهرة: ٨ شارع سيبويه المصري
- رابعة العدوية - مدينة نصر
ص. ب: ٣٣ البانوراما
تليفون: ٤٠٢٣٣٩٩
فاكس: ٤٠٣٧٥٦٧ (٢٠٢)
بيروت: ص. ب: ٨٠٦٤
هاتف: ٣١٥٨٥٩ - ٨١٧٢١٣
فاكس: ٨١٧٧٦٥ (٩٦١)

الدكتور أحمد عمر هاشم

التضامن
فى مواجهة
التحديات

دار الشروق

بسم الله الرحمن الرحيم

المقـدمة

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على أشرف المرسلين سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

أما بعـــــد

فإن أمتنا الإسلامية تعيش مرحلة من أدق مراحل حياتها، وتواجه تحديات متعددة، تستوجب على كل المسلمين - أفرادا وجماعات، وأمما وشعوبا - أن يتضامنوا، وأن يستجيبوا لدعوة القرآن الكريم إلى توحيد موقفهم: ﴿**وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا**﴾ [آل عمران: ١٠٣]، ودعوته إلى أن يتعاونوا: ﴿**وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَىٰ وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ**﴾ [المائدة: ٢].

والمتتبع لتعاليم الإسلام، والأحكام الفقهية، يرى أنها تشتمل على ما فيه تضامن المسلمين وتعاونهم، فقد وجَّهَ الإسلام أتباعه إلى أن يتوحدوا وأن يتعاونوا، وشرع حقوقا للآباء والأبناء والأقارب والأرحام والجيران، كما شرع حقوقا للمسلم على أخيه المسلم، وشرع الوصية والوقف والزكاة والصدقة وقضاء حوائج الناس، والإصلاح بين المتخاصمين، إلى غير ذلك من التعاليم التى تجعل من المسلمين وحدة واحدة كالبنيان المرصوص يشد بعضهم بعضا، فيشعر كل منهم بشعور أخيه المسلم، ويفرح لفرحه، ويحزن لحزنه، مثلهم في ذلك مثل الجسد الواحد.

ولم تقتصر هذه التعاليم على أبناء الأسرة أو المجتمع الواحد، بل شرع هذا بين المجتمعات والدول والشعوب بعضهم مع البعض، فنادى الإسلام بتوثيق العلاقات الإنسانية والاجتماعية والعلاقات الدولية، وهي تعاليم أسست حقوقا للإنسان قبل أن تُبْرم البشرية مواثيق حقوق الإنسان بأكثر من أربعة عشر قرنا من الزمان، فقد جاء الإسلام بالدعوة الخاتمة العالمية تبيانا لكل شيء ورحمة للعالمين.

وفي هذا الكتاب أضواء على مفهوم التضامن الإسلامي ومجالاته، ودعوة الإسلام إليه، والأسس التي يقوم عليها..

أسأل الله تعالى أن يجعله خالصا لوجهه الكريم، وأن يكون صيحة حق، ودعوة صدق للسير على منهاج التضامن الذي نادى به خاتم المرسلين، وإمام النبيين ﷺ، لبناء خير أمة أخرجت للناس.. وبالله التوفيق.

المؤلف

الدكتور أحمد عمر هاشم

الفصل الأول

مجالات التضامن الإسلامي

- التضامن الإسلامي.
- مجالات التضامن:

١ ـ التضامن في مجال الأسرة.

٢ ـ التضامن في مجال القرابة والأرحام.

٣ ـ التضامن في مجال الجيران والبيئة.

٤ ـ التضامن بين أفراد المجتمع وجماعاته.

٥ ـ التضامن في مجال الدول مع بعضها البعض.

- في مواجهة مخططات الأعداء.

التضامن الإسلامي

مفهوم كلمة التضامن

التضامن: هو التزام كل مجموعة أو أمة أن يؤدي بعضهم عن بعض، أو أن يؤدوا - مجتمعين - عن غيرهم ما يقصرون عن أدائه أو لا يستطيعون القيام به. وهو من ضَمن غيرَهُ، إذا كفله أو التزم به وأدّى عنه ما يقصر في أدائه، فالتضامن يفيد قيام من كان قادراً على معروف أو خير بمعونة من لم يكن قادراً على ذلك، فالتزام القوي بنصرة الضعيف تضامنٌ، والتزام الغني بمساعدة الفقير تضامنٌ، وهكذا...

الدعوة إلى التضامن: لقد دعا الإسلام إلى التضامن، حين أمر أتباعه أن يتعاونوا على البر والتقوى، فقال سبحانه: ﴿**وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَىٰ وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ**﴾ [المائدة: ٢].

وقال سبحانه: ﴿**وَالْعَصْرِ ۝ إِنَّ الْإِنسَانَ لَفِي خُسْرٍ ۝ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ**﴾ [العصر: ١ - ٣]. يقول الإمام الشافعي - رحمه الله -: إن الناس، أو أكثرهم، في غفلة عن تدبر هذه السورة. وروي أنه قال: لو تدبر الناس ما في هذه السورة لوسعتهم.

وواضح أن السورة الكريمة، تكشف ما يحدق بالإنسان وما يحيط به من خسران، ولا ينجو من هذا إلا الذين حققوا الإيمان وطبقوه بعمل الصالحات، وتضامنوا فيما بينهم، فتواصوا بالحق وتواصوا بالصبر.

وكما دعا القرآن الكريم إلى التضامن، فقد دعت إليه السنة المشرّفة - على صاحبها أفضل الصلاة وأتم السلام، عن أبي موسى - رضي الله عنه - قال: قال رسول الله ﷺ: «المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضا»[1].

---

(١) رواه البخاري ومسلم.

فلا شك أن تعاون المسلمين وتضامنهم يكون منهما قوة كبرى، وكأن المؤمن وحده لا يمثل قوة، كجزء البناء حين يكون وحده لا يمثل قوة، ولكن حين يكون المؤمن مع أخيه، ويكون المؤمنون مع بعضهم البعض، يكونون قوة كقوة أجزاء البناء حين تتلاقى في شكل واحد، وينضم بعضها إلى بعض فيشد بعضها بعضًا، ويقوي بعضها بعضًا.

عن النعمان بن بشير - رضي الله عنهما - قال: قال رسول الله ﷺ: «مثل المؤمنين في توادهم وتراحمهم وتعاطفهم مثل الجسد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الأعضاء بالسهر والحمى»[1].

وهذا الحديث الشريف، يوضح لنا التضامن الإسلامي بأجلى معانيه ويصوره لنا في صورة محسوسة ملموسة، فكما أن الجسد إذا أصيب منه عضو بألم يتداعى لهذا الألم كل عضو من أعضاء الجسم ويتألم الجسد كله، فلا يقر له قرار ولا يذوق النوم، بل يظل في ألم وسهر، فكذلك الحال بالنسبة للمؤمنين إذا أصيب أحدهم فردا كان أو جماعة في الداخل أو الخارج يتألم له كل مؤمن في كل الأرض ويخف لنجدته ويبذل له من أسباب المودة والرحمة والعطف ما هو في حاجة إليه وهي مودة مشتركة بين المؤمنين يتمثل فيها العطاء المشترك بين الطرفين، ولذا جاء التعبير النبوي بتلك الصيغة التي يسميها العلماء: صيغة المفاعلة التي تفيد اشتراك الطرفين في توادهم وتراحمهم وتعاطفهم.

وتتأكد الدعوة إلى التضامن الإسلامي بصورة توضح أن كمال الإيمان لا يكون إلا إذا أحب المؤمن لأخيه ما يحب لنفسه.

عن أنس - رضي الله عنه - عن النبي ﷺ قال:

«لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه»[2].

---

(١) رواه البخاري ومسلم.
(٢) رواه البخاري ومسلم.

مجالات التضامن

وللتضامن مجالات مهمة، هي:

١ ـ التضامن في مجال الأسرة.

٢ ـ التضامن في مجال القرابة والأرحام.

٣ ـ التضامن في مجال الجيران والبيئة.

٤ ـ التضامن بين أفراد المجتمع وجماعاته.

٥ ـ التضامن في مجال الدول مع بعضها البعض.

١ ـ التضامن في مجال الأسرة:

لقد أمر الإسلام الأزواج بحسن معاشرة نسائهم، فقال تعالى: ﴿وَعَاشِرُوهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ﴾ [النساء: ١٩]، وقال ﷺ: «أكمل المؤمنين إيمانًا أحسنهم خلقًا، وخياركم خياركم لنسائهم»(١).

وعلى الزوج أن يعلم زوجته ما لا تعلمه من أمور دينها، وأن يدعوها إلى طاعة الله تعالى، وعليه أن يأمرها بالمعروف وينهاها عن المنكر، قال تعالى: ﴿يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قُوا أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ﴾ [التحريم: ٦]. وعلى الزوج أن يكون معتدلاً في الغيرة، فقد قال ﷺ: «إن من الغيرة ما يحبه الله ومنها ما يبغضه الله، فأما الغيرة التي يحبها الله فالغيرة في الريبة، والغيرة التي يبغضها الله فالغيرة في غير ريبة»(٢).

وعليه أن يعطيها حقها في الصداق، قال تعالى: ﴿وَآتُوا النِّسَاءَ صَدُقَاتِهِنَّ نِحْلَةً فَإِن طِبْنَ لَكُمْ عَن شَيْءٍ مِّنْهُ نَفْسًا فَكُلُوهُ هَنِيئًا مَّرِيئًا﴾ [النساء: ٤].

ودعا الإسلام إلى تأكيد حق الزوج على المرأة، فكما وصى الرجل بالمرأة وقرر لها حقوقا واجبة على زوجها، وصى المرأة بالرجل وقرر له حقوقا واجبة على

---

(١) رواه الترمذي.
(٢) رواه أبو داوود والترمذي.

زوجته، وهي أن تعرف له حقه في الطاعة، وهو حق مؤكد في صيغة بالغة التأكيد. عن أبي هريرة - رضي الله عنه - عن النبي ﷺ قال: «لو كنت آمرا أحدا أن يسجد لأحد لأمرت المرأة أن تسجد لزوجها»(١).

وعليها أن تحسن معاشرة زوجها، وتحفظ له غيبته، وتصون البيت أن يدخله أحد يكرهه، قال تعالى: ﴿فَالصَّالِحَاتُ قَانِتَاتٌ حَافِظَاتٌ لِّلْغَيْبِ بِمَا حَفِظَ اللَّهُ﴾ [النساء: ٣٤].

وقال ﷺ: «ألا إن لكم على نسائكم حقا ولنسائكم عليكم حقا، فحقكم عليهن ألا يوطئن فرشكم من تكرهون، ولا يأذن في بيوتكم لمن تكرهون. ألا وحقهن عليكم أن تحسنوا إليهن في كسوتهن وطعامهن»(٢).

ومن مجال التضامن داخل الأسرة: ما شرعه الإسلام من حقوق للأبناء على آبائهم منذ الطفولة، حيث تسميتهم بالأسماء الحسنة، والعقيقة للمولود، وهي الذبيحة في يوم سابعه، والنفقة على الآباء للأبناء، وتربيتهم وتعليمهم. وفي الحديث: «مروا أبناءكم بالصلاة وهم أبناء سبع سنين، واضربوهم عليها وهم أبناء عشر، وفرقوا بينهم في المضاجع»(٣). كما دعا الإسلام إلى الرحمة بالأبناء والتسوية بينهم في العطية، قال ﷺ: «اعدلوا بين أولادكم في النُّحْل كما تحبون أن يعدلوا بينكم في البر»(٤).

كما شرع حقوقًا للوالدين على الأبناء، وهي البر بهما، والإحسان إليهما وخدمتهما. قال تعالى: ﴿وَاعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا﴾ [النساء: ٣٦]. وقال سبحانه: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا﴾ [الإسراء: ٢٣].

وعن عبد الله بن مسعود - رضي الله عنه - قال: سألت رسول الله ﷺ: «أي العمل أحب إلى الله؟ قال: الصلاة على وقتها. قلت: ثم أي؟ قال: بر الوالدين: قلت: ثم أي؟ قال: الجهاد في سبيل الله»(٥).

---

(١) رواه الترمذي.
(٢) رواه ابن ماجه والترمذي.
(٣) رواه أبو داود.
(٤) رواه مسلم.
(٥) رواه البخاري.

٢ ـ التضامن في مجال القرابة والأرحام:

إن التضامن الإسلامي بمفهومه الواسع لا يتأتى للبعيد والغريب إلا إذا كان الإنسان متضامنا مع أقرب الناس إليه، لأن فاقد الشيء لا يعطيه، ومن لا خير له في القريب فلا خير له في الغريب.

ومن هنا يتضح التضامن في مجال القرابة والأرحام، وقد أمر رب العزة سبحانه وتعالى بإعطاء ذوي القربى حقوقهم، فقال جل شأنه: ﴿وَآتِ ذَا الْقُرْبَىٰ حَقَّهُ وَالْمِسْكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ﴾ [الإسراء: ٢٦]. وقال سبحانه: ﴿وَالَّذِينَ يَصِلُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَن يُوصَلَ وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ وَيَخَافُونَ سُوءَ الْحِسَابِ﴾ [الرعد: ٢١].

ووضح الرسول ﷺ ثمرة صلة الرحم في الدنيا قبل الآخرة، عن أنس رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «من أحب أن يبسط له في رزقه وينسأ له في أثره فليصلْ رحمه»(١).

ويسمو جانب التضامن في مجال القرابة والأرحام إلى درجة تصبح معها الصدقة على ذي الرحم مضاعفة الثواب والأجر، عن سلمان بن عامر ـ رضي الله عنه ـ أن النبي ﷺ قال: «الصدقة على المسكين صدقة، وعلى ذي الرحم ثنتان: صدقة وصلة»(٢).

ولا تكون صلة الرحم مشتملة على معنى التضامن إلا حيث يقوم بها الإنسان دون مقابل، فيصل من قطعه، ويعطي من حرمه. عن عبد الله بن عمرو بن العاص ـ رضي الله عنهما ـ عن النبي ﷺ، قال: «ليس الواصل بالمكافئ، ولكن الواصل الذي إذا قُطعَتْ رحمُه وصَلَها»(٣).

وعن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ أن رجلا قال: «يا رسول الله، إن لي قرابة أصلهم ويقطعونني، وأحسن إليهم ويسيئون إلى، وأحلم عنهم ويجهلون عليّ. فقال: لئن كنت كما قلت فكأنما تسفّهم الملّ، ولا يزال معك من الله ظهير عليهم ما دمت على ذلك»(٤).

---

(١) رواه البخاري ومسلم.
(٢) رواه الترمذي.
(٣) رواه البخاري.
(٤) رواه مسلم.

ومما لا شك فيه أن قيام الإنسان بالمعروف تجاه بعض الأقارب أو الأرحام الذين يقطعون أو يسيئون إليه يتبدى فيه التضامن إحسانا وعطاء من جانب واحد، ولكن هذا الإحسان له أثره؛ إذ يحول القاطع إلى واصل، والمسيء إلى محسن ﴿ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ ﴾ [فصلت: ٣٤]، وبهذا يتم التضامن، وبعد أن كان عطاء أو بذلا من جانب واحد يصبح من الجانبين.

٣ - التضامن في مجال الجيران والبيئة:

لقد دعا الإسلام إلى رعاية حقوق الجيران، يستوي في ذلك القريب منهم والغريب، قال تعالى: ﴿ وَاعْبُدُوا اللَّهَ وَلا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَبِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ وَالْجَارِ ذِي الْقُرْبَىٰ وَالْجَارِ الْجُنُبِ وَالصَّاحِبِ بِالْجَنبِ وَابْنِ السَّبِيلِ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ مَن كَانَ مُخْتَالاً فَخُورًا ﴾ [النساء: ٣٦].

وأكد الإسلام الوصية بالجار، لدرجة أن جبريل عليه السلام لم ينزل بالتوصية بشأنه مرة ولا مرتين، بل ظل يكرر الوصية بشأنه حتى ظن الرسول ﷺ أن الجار سيصل إلى درجة يرث فيها جاره، قال الرسول ﷺ: «ما زال جبريل يوصيني بالجار حتى ظننت أنه سيورّثه»[١].

وينفي الرسول ﷺ كمال الإيمان عمن لا يعطف على جاره المحتاج، عن أنس ابن مالك رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «ما آمن بي من بات شبعان وجاره جائع إلى جنبه وهو يعلم»[٢].

ولا يقتصر حق الجوار على الجار المسلم، بل يشمل أيضا غير المسلم. قال مجاهد: كنت عند عبد الله بن عمر وغلام له يسلخ شاة، فقال: يا غلام، إذا سلخت فابدأ بجارنا اليهودي. حتى قال ذلك مراراً، فقال له: كم تقول هذا؟ فقال: إن رسول الله ﷺ لم يزل يوصينا بالجار حتى خشينا أنه سيورّثه»[٣].

---

(١) رواه البخاري ومسلم.
(٢) رواه الطبراني والبزار.
(٣) رواه أبو داود والترمذي.

٤ ـ التضامن بين أفراد المجتمع وجماعاته:

وأولى الناس بالتضامن معهم من أفراد المجتمع وجماعاته، الفئات المحتاجة والمحرومة والمعاقة.

فكفالة اليتيم ورعايته أمر واجب على الأفراد والجماعات وعلى أولي الأمر، فقد أرشد القرآن الكريم إلى إصلاح اليتامى، وحذر من أكل أموالهم بغير وجه حق، فقال سبحانه: ﴿ **إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَىٰ ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَارًا وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا** ﴾ [النساء: ١٠].

كما حذر من استبدال الرديء من مال الأوصياء بالطيب من مال اليتامى، فقال جل شأنه: ﴿ **وَآتُوا الْيَتَامَىٰ أَمْوَالَهُمْ وَلَا تَتَبَدَّلُوا الْخَبِيثَ بِالطَّيِّبِ وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَهُمْ إِلَىٰ أَمْوَالِكُمْ إِنَّهُ كَانَ حُوبًا كَبِيرًا** ﴾ [النساء: ٢].

ولما نزل التحذير من أموال اليتامى عزل المسلمون أموال اليتامى عن أموالهم، وأصبحوا يطعمون اليتامى منفردين وحدهم بعيدا عن أبنائهم، فشق هذا السلوك على نفوس اليتامى وعلى الأوصياء الذين يقومون بكفالتهم، فأباح الله تعالى لهم أن يخلطوا أموال اليتامى بأموالهم، فقال جل شأنه ﴿ **وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْيَتَامَىٰ قُلْ إِصْلَاحٌ لَّهُمْ خَيْرٌ وَإِن تُخَالِطُوهُمْ فَإِخْوَانُكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ الْمُفْسِدَ مِنَ الْمُصْلِحِ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَأَعْنَتَكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ** ﴾ [البقرة: ٢٢٠].

ووضح الرسول ﷺ أهمية كفالة اليتيم. عن سهل بن سعد ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسول الله ﷺ: «أنا وكافل اليتيم في الجنة هكذا. وأشار بالسبابة والوسطى وفرج بينهما»(١).

وفي شأن القيام بأمر الأرملة والمسكين والمحتاجين وضح الرسول ﷺ فضل هذا التضامن. عن أنس بن مالك ـ رضي الله عنه ـ عن النبي ﷺ قال: «الساعي على الأرملة والمسكين كالمجاهد في سبيل الله. وأحسبه قال: وكالقائم لا يفتر وكالصائم لا يفطر»(٢).

---

(١) رواه البخاري وأبو داود والترمذي.

(٢) رواه البخاري ومسلم.

ودعا الإسلام إلى رعاية الفئات الضعيفة في المجتمع ووجوب رحمتهم ومساعدتهم وعدم التعرض لهم بالإيذاء. عن أبي مسعود البدري - رضي الله عنه - قال: كنت أضرب غلامًا لي بالسوط، فسمعت صوتًا من خلفي: «اعلم أبا مسعود». فلم أفهم الصوت من الغضب، فلما دنا مني إذا هو رسول الله ﷺ، فإذا هو يقول: «اعلم أبا مسعود أن الله أقدر عليك منك على هذا الغلام. فقلت: يا رسول الله هو حُرٌّ لوجه الله تعالى. فقال: أما لو لم تفعل لَلَفَحَتْكَ النار. أو لمستك النار»(١). كما حرم الإسلام الاستخفاف بالخدم والمملوكين والضعفاء والبسطاء، وأوجب احترام كرامتهم وآدميتهم ومساعدتهم، والتضامن معهم.

عن المعرور بن سويد - رضي الله عنه - قال: «رأيت أبا ذرٍّ بالرَّبذَة وعليه بُرْد غليظ وعلى غلامه مثله، قال: فقال القوم: يا أبا ذر لو كنت أخذت الذي على غلامك فجعلته مع هذا فكانت حلة، وكسوت غلامك ثوبا غيره؟ قال: فقال أبو ذر: إني كنت سابيت رجلا، وكانت أمه أعجمية فعيّرْتُه بأمه، فشكا إلى رسول الله ﷺ، فقال: يا أبا ذر إنك امرؤ فيك جاهلية، إخوانُكُم خَوَلُكُم (أي خدمكم) جعلهم الله تحت أيديكم، فمن كان أخوه تحت يده فليطعمه مما يأكل وليلبسه مما يلبس، ولا تكلفوهم ما يغلبهم، فإن كلفتموهم فأعينوهم»(٢).

ومن تضامن الأفراد والجماعات الانتصار للمظلوم، ورد الظالم عن ظلمه، قال ﷺ: «انصر أخاك ظالما أو مظلومًا. قيل: يا رسول الله أنصره مظلومًا، فكيف أنصره ظالما؟ قال: تحجزه، أو تمنعه، من الظلم، فإن ذلك نصره»(٣).

ومن تضامن الأفراد والجماعات: الشفاعة الحسنة، قال تعالى: ﴿مَن يَشْفَعْ شَفَاعَةً حَسَنَةً يَكُن لَّهُ نَصِيبٌ مِّنْهَا وَمَن يَشْفَعْ شَفَاعَةً سَيِّئَةً يَكُن لَّهُ كِفْلٌ مِّنْهَا﴾ [النساء: ٨٥]. فالله تعالى يكافئ من يسعى في قضاء حوائج الناس سواء أقضيت الحاجة أم لا، كما أنه يؤاخذ من يسعى لضرر الناس سواء أحدث الإضرار أم لا. وقد قال رسول الله ﷺ: «اشفعوا تُؤجروا، ويقضي الله على لسان نبيه ما أحب»(٤).

---

(١) رواه مسلم.
(٢) رواه البخاري.
(٣) رواه البخاري.
(٤) رواه البخاري ومسلم.

وعن ابن عباس - رضي الله عنهما - أنه كان معتكفًا في مسجد رسول الله ﷺ، فأتاه رجل فسلم عليه ثم جلس، فقال له ابن عباس: يا فلان، أراك مكتئبًا حزينًا. قال: نعم يا بن عم رسول الله ﷺ لفلان عليّ حق... إلى أن خرج ابن عباس من اعتكافه وقال: سمعت صاحب هذا القبر - والعهد به قريب - ودمعت عيناه، وهو يقول: «من مشى في حاجة أخيه وبلغ فيها كان خيرا له من اعتكاف عشر سنين»(١).

ومن تضامن الأفراد والجماعات: تفريج الكُرب، والتيسير على المعسر، وستر المسلم ومعاونته. عن أبي هريرة - رضي الله عنه - عن النبي ﷺ قال: «مَن نفّس عن مؤمن كُربة من كرب الدنيا نفّس الله عنه كُربة من كرب يوم القيامة، ومن يسر على معسر يسر الله عليه في الدنيا والآخرة، ومن ستر مسلمًا ستره الله في الدنيا والآخرة، والله في عون العبد ما كان العبد في عون أخيه، ومن سلك طريقًا يلتمس فيه علمًا سهّل الله له به طريقًا إلى الجنة، وما اجتمع قوم في بيت من بيوت الله يتلون كتاب الله ويتدارسونه بينهم إلا نزلت عليه السكينة وغشيتهم الرحمة وحفّتهم الملائكة وذكرهم الله فيمن عنده، ومن بطّأ به عمله لم يسرع به نسبه»(٢).

وستر الإنسان لأخيه فيه تضييق للمخالفات وتحجيم لها حتى لا تنتشر. قال ﷺ: «من رأى عورة فسترها كان كمن أحيا موءودة»(٣). وروى أبو داود والنسائي عن ذخير أبي الهيثم كاتب عقبة بن عامر - رضي الله عنه - قال: قلت لعقبة ابن عامر: إن لنا جيرانًا يشربون الخمر، وأنا داع لهم الشرط ليأخذوهم. قال: لا تفعل، وعظهم وهددهم. قال إني نهيتهم فلم ينتهوا، وأنا داع لهم الشرط ليأخذوهم. قال: ويحك! لا تفعل، فإني سمعت رسول الله ﷺ يقول: «من رأى عورة فسترها كان كمن أحيا موءودة».

ومن تضامن الأفراد والجماعات: عيادة المريض، وإطعام الجائع، وسقي الظمآن. عن أبي هريرة - رضي الله عنه - قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الله عز وجل يقول يوم القيامة: يا بن آدم، مرضت فلم تعدني. قال: يا رب، كيف أعودك

---

(١) رواه البيهقي واللفظ له، ورواه الحاكم مختصراً وقال: صحيح الإسناد.

(٢) رواه مسلم.

(٣) رواه مسلم.

وأنت رب العالمين؟! قال: أما علمت أن عبدي فلانًا مرض فلم تعده، أما علمت أنك لو عدته لوجدتني عنده؟ يا بن آدم، استطعمتك فلم تطعمني. قال: يا رب، كيف أطعمك وأنت رب العالمين؟! قال: أما علمت أنه استطعمك عبدي فلان فلم تطعمه، أما علمت أنك لو أطعمته لوجدت ذلك عندي؟ يا بن آدم، اسْتَسقَيْتُكَ فلم تسقني. قال: يا رب، كيف أسقيك وأنت رب العالمين؟! قال: اسْتَسقَاكَ عبدي فلان فلم تسقه، أما علمت أنك لو سقيته لوجدت ذلك عندي؟»[1].

٥. التضامن في مجال الدول مع بعضها البعض:

لقد أرسى الإسلام قواعد أصيلة للتضامن في مجال الدول بعضها مع البعض، وأهم هذه القواعد «الوحدة». قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ﴾ [**الحجرات: ١٣**]. وقال سبحانه: ﴿وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا﴾ [**آل عمران: ١٠٣**].

ومن قواعد التضامن بين الدول «السلم» ففي ظله تتمكن الوحدة من القيام، وفي مناخ «السلم» يتمكن الأفراد والجماعات من التعارف والتآلف والتآزر والتعاطف. قال الله تعالى: ﴿وَإِن جَنَحُوا لِلسَّلْمِ فَاجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ﴾ [**الأنفال: ٦١**].

ومن أهم قواعد التضامن بين الدول «الوفاء بالعهود»، قال الله تعالى: ﴿وَأَوْفُوا بِعَهْدِ اللَّهِ إِذَا عَاهَدتُّمْ وَلَا تَنقُضُوا الْأَيْمَانَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا وَقَدْ جَعَلْتُمُ اللَّهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلًا﴾ [**النحل: ٩١**].

---

(١) رواه مسلم.

التضامن الإسلامي ومواجهة مخططات الأعداء

لقد تركزت مخططات أعداء الإسلام في تمزيق وحدة الأمة وتفريق صفها وجعلها أقاليم وقوميات. وكان شعارهم في هذه المخططات «فرق تسُدْ» ولما كان كتاب الله تعالى أكبر شيء يوحد المسلمين، عملوا على محاولة إبعاد المسلمين عن دستورهم السماوي، وقال قائلهم: «لا قرار لنا ما دام المصحف في أيدي المسلمين» وأيضًا حاولوا هدم أسباب تواصل المسلمين الثقافي عن طريق ترويج نظريات مادية بعيدة عن الإسلام ومعادية له، وعن طريق إشاعة بعض التيارات والمذاهب المادية كالوجودية والشيوعية والوثنية والدهرية والقاديانية والعلمانية. . . إلى غير ذلك من التيارات.

كما عملوا على نشر الآراء الغريبة وبعث الأفكار البالية التي تعمل على تفريق الأمة.

كما حرص الاستعمار قبل تخليه عن بعض المواقع والبلاد التي نزح عنها أن يدع بعض مواقع في الحدود لتكون بمثابة شوكة تثير الخلافات بين وقت وآخر.

كما أشعل نار الفتن بين بعض الدول حتى لا تجتمع كلمتها وحتى لا يتوحد صفها.

وقد بُذلت محاولات مخلصة في طريق التضامن كان للأزهر الشريف في مصر دور عالمي بارز فيها، ولرابطة العالم الإسلامي بمكة المكرمة، ولمنظمة المؤتمر الإسلامي، والمجلس الأعلى العالمي للدعوة والإغاثة.

وغير هذه المنظمات كانت لها محاولات واجتهادات تستهدف في إخلاص أكيد قيام التضامن الإسلامي بين بلاد العالمين العربي والإسلامي، بَيدَ أن التمزيق والخلافات السياسية والعقدية، تمثل عقبات في طريق هذا التضامن المنشود.

فكان لا بد من مناهضة أسباب التمزق والخلافات، والدعوة إلى تنقية الأجواء، والدعوة إلى سوق إسلامية مشتركة، فإن الأوضاع العالمية اليوم تستوجب على المسلمين أن يحافظوا على اقتصادهم ومكاسبهم ومصالحهم، وأخطر ما يواجه العالم الإسلامي هو انعزالية بعض الدول والبلاد.

ولقد أصبح من أهم الأهداف الإستراتيجية للنهوض بالاقتصاد الإسلامي قيام سوق مشتركة.

ولكن هذا لا بد أن يسبقه توحيد القوى والصفوف. ولعل ما تعانيه الأقليات الإسلامية في العديد من الدول يستوجب علينا أن نحقق الدعوة إلى التضامن حتى تصبح واقعًا ملموسًا عمليا لا مرية فيه.

الفصل الثاني

الدعوة إلى التضامن الإسلامي

- الدعوة إلى التضامن لنصرة الأقليات الإسلامية.
- الدعوة إلى التضامن الإسلامي كأساس لقوة المسلمين.
- أثر التضامن الإسلامي.

الدعوة إلى التضامن لنصرة الأقليات الإسلامية

لقد أصبح التضامن الإسلامي ضرورة حتمية، يفرضها الواقع، وما تعرضت له الأقليات من اضطهاد ومحاولات الإبادة والتصفية. واليوم، ودنيا الناس تشاهد مدًّا دينيا بعيد المدى وانطلاقًا إسلاميا في كل أرجاء المعمورة، ثم إلى جانب هذا ما أحرزته بلاد الإسلام - في الأغلب - من حرية واستقلال ومن إطاحة بالاستعمار، بعد هذا كله أصبح التضامن الإسلامي صيحة تدوي في دم كل مسلم لاستنقاذ الأقليات المضطهدة، ولاستنقاذ المقدسات الإسلامية العزيزة.

وما زال التاريخ والواقع يشهدان بما تعرضت له الأقليات، وما أحدثه دعاة الإلحاد والسطو والتخريب من تدمير وتغريب في بعض البلاد الإسلامية، وما أتت عليه معاول الهدم، وما تعرضت له المساجد والقائمون فيها.

فمن أظلم من هؤلاء الذين منعوا مساجد الله أن يذكر فيه اسمه! كما قال تعالى: ﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن مَّنَعَ مَسَاجِدَ اللَّهِ أَن يُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ وَسَعَىٰ فِي خَرَابِهَا أُولَٰئِكَ مَا كَانَ لَهُمْ أَن يَدْخُلُوهَا إِلاَّ خَائِفِينَ لَهُمْ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ وَلَهُمْ فِي الآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾ [البقرة: ١١٤].

إن مخططات أعداء الإسلام بما تنطوي عليه من خبث وعدوان لم تعد بعد خافية على أحد، وإن ما يحدث في كثير من بلاد الإسلام من اضطهاد وتصفية، ومن هدم وضياع لا ينكره أحد، وإن ما يحدث من فتن وقلاقل وما يثار من مخاوف ويحاك من مؤامرات، كل ذلك وغيره كثير تكشف عنه الأحداث ساعة بعد أخرى، وهو يشير إلى مخالب الصهيونية المسمومة ومعاول الإلحاد والاستعمار، وفي هذا كله ما يدعو العالم الإسلامي اليوم في شتى أنحاء الدنيا إلى التكاتف وإلى تضافر القوى وجمع الكلمة ورأب الصدع وتوحيد الصفوف في ميدان واحد لتنطلق كتائب الإيمان تحت راية واحدة وحول كلمة واحدة هي «لا إله إلا الله محمد رسول الله». وتحت راية الإسلام انضوى رجال أخلصوا النية لله

ولرسوله وتخطوا بدعوتهم كل الحواجز النفسية والمعتقدات الزائفة. وهذا الرعيل من المؤمنين الصادقين ساروا خلف رسولهم صلوات الله وسلامه عليه، وتحملوا في سبيل عقيدتهم كل أذى واضطهاد.

إن هؤلاء يمثلون النماذج الأولى لقافلة الإسلام في دورها الأول، وفي حياتهم المضطهدة دروس بالغة لدعاة الحق وأتباعه على مر أدوار حياتهم إنهم يمتحنون في أموالهم وفي أنفسهم بالقول والعمل، وبالصبر والتقوى، وبالعزائم المؤمنة القوية، لا يكترثون باضطهادهم بل يزدادون إيمانًا مع إيمانهم، فأهل الحق ودعاته يجاهدون بإخلاص ويعلمون يقينًا أنهم سيُمتحنون ويُبتَلون في المال وفي النفس، كما قال سبحانه وتعالى: ﴿لَتُبْلَوُنَّ فِي أَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ وَلَتَسْمَعُنَّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا أَذًى كَثِيرًا وَإِن تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الأُمُورِ﴾ [آل عمران: ١٨٦].

وفي عصرنا الحاضر نشاهد صوراً للمضطهدين بسبب عقيدتهم من الأقليات الإسلامية الذين يتعرضون لأنكى مظاهر التعذيب والاضطهاد، وأبشع صور الإبادة والتصفية.

وهذه المشاهد تذكرنا بما حدث للمسلمين الأوائل، وكيف كانوا ـ على قلة عددهم ـ لا يركنون إلى الدعة ولا يستسلمون للهوان يقع عليهم، ولكنهم قاتلوا في سبيل الله وجاهدوا باسم الحق، حتى نصرهم الله ووعدهم بالنعيم المقيم في الآخرة، وبشرهم بنهاية أعدائهم حتى لا يغتر أحد بتقلب الذين كفروا في البلاد.

قال الله تعالى: ﴿فَالَّذِينَ هَاجَرُوا وَأُخْرِجُوا مِن دِيَارِهِمْ وَأُوذُوا فِي سَبِيلِي وَقَاتَلُوا وَقُتِلُوا لأُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلأُدْخِلَنَّهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ ثَوَابًا مِّنْ عِندِ اللَّهِ وَاللَّهُ عِندَهُ حُسْنُ الثَّوَابِ (١٩٥) لا يَغُرَّنَّكَ تَقَلُّبُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي الْبِلادِ (١٩٦) مَتَاعٌ قَلِيلٌ ثُمَّ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمِهَادُ﴾ [آل عمران: ١٩٥ ـ ١٩٧].

وقد وعد الله تعالى ـ ووعده الحق ـ أولئك الذين ظُلموا بأن يُبوئهم في الدنيا حسنة، وأن يجعل لهم في الآخرة أكبر الأجر، وما ذاك إلا بصمودهم ووقوفهم في وجه الكفر والطغيان وتوكلهم على الله واعتصامهم بدينه.

قال الله سبحانه وتعالى : ﴿ وَالَّذِينَ هَاجَرُوا فِي اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مَا ظُلِمُوا لَنُبَوِّئَنَّهُمْ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَلَأَجْرُ الْآخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ (٤١) الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴾ [النحل : ٤١ ـ ٤٢] .

والإسلام دائمًا وأبدًا ينادي أتباعه أن يجاهدوا في سبيل الحق ونصرته ، حتى لا يستشري الفساد في الأرض ، وحتى لا تتفاقم الأخطار والاضطهادات للمستضعفين من المسلمين . وبيّن كذلك أنه لولا الله تعالى يدفع بقوم عن قوم لأهلك القويُّ الضعيفَ وضاعت كل المعالم ، وقد قضت مشيئة الله سبحانه وتعالى أن يُبتلى الناس على مختلف أشكالهم وطبقاتهم ، فالمستضعفون مبتلون بما هم فيه ، وغيرهم من الأقوياء مبتلون بموقفهم من الحق ، وهل يقفون بجانب المستضعفين في الأرض؟

ومن الأمور المقطوع بها أن الله تعالى قادر على نصرة الأقليات ، قادر على تحطيم القوى الباغية . ولكن حكمته العالية وإرادته النافذة قضتا على العباد أن يبذلوا جهدهم في طاعته ، وفي سبيل عقيدتهم ، وليبلوهم حتى يظهر المجاهدون الصامدون ويبلو كذلك أخبارهم . قال تعالى : ﴿ وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّىٰ نَعْلَمَ الْمُجَاهِدِينَ مِنكُمْ وَالصَّابِرِينَ وَنَبْلُوَ أَخْبَارَكُمْ ﴾ [محمد : ٣١] .

وتشرق القوانين الإلهية من كتاب الله لترسم للأمة الإسلامية أصول الحياة الجادة ، ترسمها لهم على السواء للكثيرين منهم وللأقليات ، وللأقوياء وللضعفاء . إنها أصول ثابتة لا تتغير ، وقواعد محكمة لا تبديل لها .

لمن يكون عون الله؟ عمّن يدافع الله؟

﴿ إِنَّ اللَّهَ يُدَافِعُ عَنِ الَّذِينَ آمَنُوا ﴾ [الحج : ٣٨] نعم ، دفاع الله يكون عن الذين صانوا دينهم وحققوا أصول الإيمان ، واستوعبوا مبادئه ، وساروا على نهجه ، واستقاموا على الصراط المستقيم ، وأخذوا في أسباب الحفاظ على الدين والذود عن حماه ، وجاهدوا في سبيل الحق . والله القادر على نصرهم بغير جهاد ، ولكن لا بد من الابتلاء ولا بد من إظهار الطاعة ؛ ليظهر المخلص من غيره ، وتأخذ العبادات اتجاهها المخلص وجهادها الصامد المنتصر .

وكيف تصان المعالم في الأرض؟ وتحفظ من الهدم والضياع؟

بدفاع الناس بعضهم عن البعض، وجمع الكلمة، ووحدة الصف الإسلامي على مسار الإيمان والجهاد.

﴿ وَلَيَنصُرَنَّ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ ﴾ [الحج: ٤٠]، فمن دافع عن الدين دافع الله عنه، ومن نصر الإسلام عقيدةً وعبادةً وسلوكًا ـ نصره الله. تلك هي الأصول القرآنية المحكمة، جمعتها الآيات الكريمة:

﴿ إِنَّ اللَّهَ يُدَافِعُ عَنِ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ كُلَّ خَوَّانٍ كَفُورٍ (٣٨) أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا وَإِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ (٣٩) الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِن دِيَارِهِم بِغَيْرِ حَقٍّ إِلاَّ أَن يَقُولُوا رَبُّنَا اللَّهُ وَلَوْلا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّهُدِّمَتْ صَوَامِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيراً وَلَيَنصُرَنَّ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴾ [الحج: ٣٨ ـ ٤٠].

وبعد، فإن هذا الذي قدمته بين يدي القارئ المسلم من واجب المسلمين جميعًا، وواجب الأكثرية والأقلية، وواجب الحكومات والشعوب. إنه واجب الكل على السواء بنص القرآن الكريم كما سبق، ويبقى واجب الدول الإسلامية خاصة تجاه الأقليات ونصرتهم كما قال رسول الله ﷺ: «المسلم أخو المسلم لا يظلمه ولا يخذله ولا يحقره»(١).

ويقول صلوات الله وسلامه عليه: «المسلم أخو المسلم، لا يظلمه ولا يسلمه. من كان في حاجة أخيه كان الله في حاجته، ومن فرج عن مسلم كربة فرج الله عنه بها كربة من كرب يوم القيامة، ومن ستر مسلمًا ستره الله يوم القيامة»(٢).

إن أحوال المسلمين في البوسنة والهرسك وفي الفلبين وتايلاند وبورما والصين وروسيا والهند، وما تعانيه الأقليات الإسلامية في تلك البلاد وفي غيرها من المضطهدين في تنزانيا وتشاد والحبشة وغيرها مما يندى له الجبين. إنهم يستنجدون بالمسلمين في شتى أنحاء العالم لاستنقاذهم من حروب الإبادة وألوان الفتك والتعذيب، ثم إن المسلمين أكثرية في هذه الدول.

---

(١)، (٢) رواه مسلم

لقد استباح الطغاة أعداء الإسلام والإنسانية أموالهم وكرامتهم ومساجدهم ودور العلم، وحولوا تلك المساجد ودور العلم إلى أماكن عبث وفساد.

ويقوم اليهود بتدريب المدنيين من الصليبيين في الفلبين على القتال والاغتيال، ويقول العالم الفاضل الشيخ محمد المنتصر الكتاني:

«ويهود فلسطين المحتلة ويهود أمريكا واليهودية العالمية يدربون المدنيين من الصليبيين الفلبينيين على القتل والاغتيال الفردي والجماعي، وعلى تحريق الجماعة والفرد وهدم البيوت والأحياء على ساكنيها، أيقاظا وهم رقود. ومن أفلت منهم من يفر بنفسه وتبقى لهم أرض المسلمين خاوية من أهلها فيستولون عليها ثم يجعلون لها صكوكًا وملكيات يزعمون فيها أنهم اشتروها من أهلها عن طيب خاطر منذ سنوات. وهؤلاء اليهود الذين يدربون نصارى الفلبين هم خبراء المخربين اليهود في فلسطين منذ الانتداب البريطاني وإلى اليوم...» ا. هـ.

هذا الواقع المر يفرض على المسلمين جميعًا أن يهبوا عن بكرة أبيهم وأن ينهضوا يدًا واحدة لاستنقاذ إخوانهم المسلمين. والمسلمون يد على من سواهم.

إن على المسلمين اليوم أن يهبوا في تضامن وتكاتف على شتى بقاعهم وبمختلف جبهاتهم ومواقعهم ومواهبهم وقدراتهم، حكومات وشعوبًا، علماء ومفكرين وكتابًا ومتحدثين، وجنودًا وقوادًا، حتى يظهر دين الحق في تلك البلاد على الدين كله كما قال الله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ﴾ [سورة التوبة ٣٣].

هذا ومما يندى له جبين العالم الإنساني ما يحدث للأقليات المسلمة في أنحاء المعمورة من أعداء الإسلام الذين تربصوا بالإسلام وبكل دعوات الخير والإصلاح على ظهر الأرض.

إن واجب العالم الإسلامي أن يهب هبة رجل واحد، وأن ينهض جميع المسلمين عن بكرة أبيهم لإنقاذ هذه الأقليات من أيدي الظالمين الملحدين، وأن ينفقوا من أموالهم وأنفسهم ما أوجبه الله عليهم وإلا فجميع المسلمين في جميع أنحاء العالم مقصرون ومسئولون أمام الله على ما فرطوا في حقوق إخوانهم المسلمين، والله الهادي إلى سواء السبيل..

الدعوة إلى التضامن الإسلامي كأساس لقوة المسلمين

إن الأمم والشعوب تختلف في لغاتها وأشكالها، وفي عاداتها وتقاليدها، وهذا الاختلاف له صداه على علاقتها الإنسانية، وله أثره على مسار الروابط بينها، إن لم تكن بينها قاعدة أساسية ذات أصول ثابتة، تتغلب على الفوارق ووجوه الاختلاف.

وليس في الوجود بأسره قاعدة تربط بين الأمم والشعوب وتوحد الصف الإنساني كالعقيدة الإسلامية.

وإذا استنبأنا التاريخ البشري عبر أشواطه البعيدة عن هذه الحقيقة لما وجدنا سوى الإسلام الذي ارتضاه الله دينًا قيمًا ملة إبراهيم حنيفا.

ولكم طالعنا التاريخ بأمم بلغت في القوة ما بلغت ووصلت في تقدمها الحضاري ما وصلت، ولكنها كانت بعيدة عن روح الإسلام. فما دارت عليها دورة الحياة إلا واندكت عروشها وتصدعت حضارتها، لأنها لم تقم على أساس ولم يكن لها من القوة الروحية نصيب.

والأمم التي لا تأخذ بشريعة الإسلام ومبادئه يدب بينها الخلاف ويستشري بين صفوفها التشاحن وتشتعل فيها الفتن والحروب. وأمة الإسلام المترامية الأطراف لها من عقيدتها أقوى رابطة لو أنها حرصت عليها وجاهدت في سبيلها، فإنها تغدو قوة كبرى لا تنازعها أمة في الوجود قاطبة.

ومن هنا دعت الحاجة الملحة إلى التضامن الإسلامي لإيقاظ مشاعر الإخاء والتواصل في سائر أرجاء الوطن الإسلامي، ليهب الجميع عن بكرة أبيهم متعاطفين متساندين متعاونين على البر والتقوى. وفي التضامن الإسلامي قوة في شتى المجالات.

أولا : في الجانب الاقتصادي مجال واسع يؤدي التضامن فيه أدواراً بالغة الأثر بين الأفراد والجماعات، والأمم والشعوب، فتخفّ الأمة الإسلامية لإغاثة المسلمين، وسدّ حاجتهم ومعاونتهم وتفريج كربتهم، سواء كانوا من بلدهم أو من غير بلدهم، قرُبُوا منهم أو بعُدُوا، فالوطن الإسلامي لا حدود له تحدّه، ولا فوارق جنس أو لغة تقف في سبيل تضامنه .

وفي سبيل تكامله الاقتصادي تتلاقى تعاليم الإسلام لاستثمار خيرات الأرض للصالح العام بين المسلمين، يعاون كل فرد أخاه وكل مجتمع غيره بما لديه من خير أيا كان نوعه. وقد أوجب الإسلام حقوقًا في كل الجوانب الاقتصادية دعمًا لتكافل المسلمين وتساندهم .

ففي المال حق، وفي الزراعة حق، وفي الماشية حق، وفي عروض التجارة . . . وهكذا .

وفي هذا الجانب لم تدَع شريعةُ الإسلام الطبقة الفقيرة دون أن تشعر بمذاق العزة ولذة اليد العليا المنفقة. فكما شرع الإسلام حقا للفقير على الغني، فإنه شرع كذلك حقا للفقير على الفقير، كما هي الحال في زكاة الفطر، وذلك ليسعى الفقير في تحصيل المال، ولينهض إلى المعاونة متى استطاع إليها سبيلا. وحض الإسلام على العمل والإنتاج وعلى استثمار خيرات الأرض لصالح الأمة الإسلامية .

ثانيا : في الجانب الثقافي، ويظهر التضامن بصورة واعية تدرك أبعاد الحركات الثقافية التي تدور حول آفاق العلم والمعرفة، وتدرك أهمية التخصصات العلمية في كل مجال؛ ليسهم كل تخصص في بناء الحياة - في الجانب الذي يحتاج إليه - ويفسح المجال أمام نهضة علمية إسلامية، تتجاوب معها كل أرجاء العالم الإسلامي، داعية إلى الإسلام، مقاومة كل حركات المناوئين للدعوة المتربصين بها، ونشر الوعي الديني الصافي في كل قطاعات الأمة الإسلامية وفي كل ميادين الحياة صناعية كانت أو تجارية أو زراعية، وفي كل ميادين العمل المختلفة؛ حتى لا ينحصر الوعي الديني لدى الطبقات من المثقفين فحسب .

ويسهم في هذا كل بلد إسلامي بما لديه من إمكانات علمية وتخصصات دقيقة في سائر فنون العلم والمعرفة وبحيث تكون هناك دوائر عامة تربط بين البلاد، وتنظم شئون الفكر والثقافة، شريطة ألا تحيد عن منهج الإسلام وقيمه.

ثالثا: في مواجهة أعداء الإسلام، وللتضامن الإسلامي رسالته الجليلة في مواجهة الفكر المادي ومقاومة الغزو الفكري والإلحاد في كل صوره وأشكاله.

والجهاد في سبيل الله، ذلك أقوى دلالات الإيمان الصادق والعقيدة الصحيحة.

كما أن النكوص عن مواجهة التيارات الوافدة والقعود عن الجهاد في سبيل الله وإيثار أعراض الدنيا دلالة على الخروج عن روح الإسلام ومبادئه.

قال تعالى: ﴿قُلْ إِن كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتَّىٰ يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ﴾ [التوبة: ٢٤].

أثر التضامن الإسلامي

لقد وحّد الإسلام بعقيدته وشريعته، وبأحكامه وأخلاقه بين جميع المسلمين، أفرادًا وجماعات، وأممًا وشعوبًا، وجعل الله الغاية من وراء خلقهم من ذكر وأنثى، ومن جعلهم شعوبا وقبائل، أن يتعارفوا، فيعرف كل منهم غيره ويميزه، ويتبادلون المعرفة والعون والتضامن.

وحتى لا يستعلي بعضهم على بعض، أو ينخدع ببريق الحياة وظواهرها الخلابة - عيّن الإسلام درجة التفاضل، وحدد ميزان التكريم والتقدير، وذلك بتقوى الله وحده، فقال سبحانه وتعالى: ﴿ **يَأَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ** ﴾ [**الحجرات**: ١٣].

فإذا كان أصل الإنسانية يرجع إلى أب واحد وأمّ واحدة، وجاء إلى الناس الدين، وجاءهم الرسول ﷺ بدستور سماوي حكيم لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، فدعاهم إلى رب واحد لا شريك له، هو الخالق القادر وهو المدبر والمهيمن وهو على كل شيء قدير، فاجتمعوا تحت راية الإسلام وانضووا تحت لواء القرآن، وانتظموا في صفوف المؤمنين الذين آمنوا بالله ربّا وبالإسلام دينًا، وبسيدنا محمد ﷺ نبيًا ورسولاً. إذا كان الأمر كذلك فإن المسار الطبيعي لحياتهم أن يكونوا صفا واحدًا كالبنيان المرصوص يشد بعضه بعضًا. روى الإمام البخاري بسنده عن أبي موسى، عن النبي ﷺ أنه قال: «المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضًا. ثم شبك بين أصابعه». هذا هو الوجه الحقيقي للتضامن الإسلامي، لقد ربط بين الجماعات والأفراد، وبين الأمم والشعوب، فجعلهم - على مختلف أشكالهم وألوانهم، وأجناسهم وأقطارهم - أمة واحدة متعاونة متضامنة، متعاطفة متساندة، يشد بعضها بعضًا في كل مجالات الحياة، وفي كل ميادين العمل المختلفة.

ومعلوم أن البنيان الذي يشد بعضه بعضًا متماسك قوي، يثبت أمام العواصف ولا تؤثر فيه الهزات ولا التيارات؛ لأنه يقوى على ردها، ويصون جماعته منها. كذلك الحال بالنسبة للأمة الإسلامية، فهي بوحدتها وتضامنها قوة لا تقف في مواجهتها قوة، لأنها بتأييد الله تعالى لها، وبفضل اعتصامها بحبل ربها وتكاتفها في سبيل الحق - تحقق النصر على أعدائها، وتحقق خيريتها على ظهر الأرض. وتنشر الأمن والاستقرار، والخير والرخاء، وتقيم مبادئ الحق والعدل، وتصد تيارات الفساد والإلحاد، وترد موجات التحلل السافرة.

ومبادئ التضامن في الإسلام عامة، تستوعب نواحي الحياة المتعددة، وتشمل كل مظاهر الإنسانية في السراء والضراء، فالمسلم مع أخيه المسلم، يحس بإحساسه ويشعر بشعوره، إن أصابه فرح هنّأه وشاركه فرحه، وإن أصابه مكروه واساه وخفف عنه.

إن نظرة الإسلام إلى تضامن المسلمين نظرة واسعة وعميقة، فهي تجعل منهم شخصية واحدة، وتجمع بين أحاسيسهم بحيث تصبح كأحاسيس الجسد الواحد للشخص الواحد، فكما أن الإنسان إذا ما أصيب بتعب، أو اشتكى من ألم في عضو من الأعضاء - أصاب التعب والسهر بقية أعضائه، فكذلك الحال بالنسبة للمسلمين، إنهم جميعًا كالجسد الواحد، وكل فرد منهم يمثل عضواً من تلك الأعضاء «مَثَل المؤمنين في توادهم وتعاطفهم وتراحمهم مثل الجسد الواحد، إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى»[١].

إن أخوة الإسلام تقتضي من المسلمين العدل بين الناس، وإنصاف المظلوم، والتفريج عن المكروب. وتقتضي ذلك من الإنسان لأخيه الإنسان، ومن المجتمع الإسلامي والأمة بأسرها، وبين المجتمعات والأمم.

فمن الهدي النبوي الشريف: «المسلم أخو المسلم، لا يظلمه ولا يسلمه. من كان في حاجة أخيه كان الله في حاجته، ومن فرج عن مسلم كربة فرج الله عنه بها كربة من كرب يوم القيامة ومن ستر مسلمًا ستره الله يوم القيامة»[٢].

---

(١) رواه أحمد ومسلم عن النعمان بن بشير.
(٢) رواه البخاري ومسلم.

إن على المجتمعات الإسلامية أن تتضامن على البر والتقوى، وتتعاون وتتساند لتقضي على الجوع والضياع والحرمان والجهل، وتتحد معتصمة بحبل الله لإنقاذ كل فرد محتاج، وكل مجتمع ضعيف، وكل بلد إسلامي في حاجة إلى مد يد العون والنصرة إليه، حتى لا تجد تيارات الفساد والشر مساراً لها أو منفذاً لسمومها.

ويوم أن تتضامن بلاد العالم الإسلامي على نصرة دينها وتحقيق خيريتها، يوم أن ينصرها الله نصراً مؤزراً، ويُمكِّن لها في الأرض؛ لتقيم شريعة الله مؤكدة صلتها به، مقوية روابطها بالمجتمع، مدافعة عن دين ربها، آمرة بالمعروف وناهية عن المنكر.

﴿وَلَيَنصُرَنَّ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ (٤٠) الَّذِينَ إِن مَّكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنكَرِ وَلِلَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ﴾ [الحج: ٤٠-٤١].

الفصل الثالث

أسس التضامن الإسلامي

- الوحدة.
- التعاون.
- سماحة التشريع الإسلامي.
- الشورى.
- أخوّة الإسلام.
- حب الأوطان.

الوحدة سياج المجتمع

من أسس التضامن الإسلامي «الوحدة»

وللوحدة أثرها وفاعليتها ومنزلتها وقوتها، فهي من أهم ركائز التضامن الإسلامي الذى تنشده الأقطار الإسلامية عبر التاريخ، فيوم أن يتحد العالم الإسلامي في مشارق الأرض ومغاربها تحت راية: «لا إله إلا الله محمد رسول الله» يوم أن تنعم المجتمعات والشعوب بالأمن والاستقرار والسعادة والرفاهية، فلا يتهددها عدو ولا يحدق بها خطر ولا يتآمر عليها الباطل مهما كان مدججًا بالأسلحة، ولا يتسرب إلى حماها غزو فكري، ولا تيار من التيارات المادية، ولا تحلل خلقي، وذلك أن الوحدة سياج منيع يصون حماها من كل دخيل ويحفظ عليها أمنها واستقرارها.

بل لا خوف على غيرها من الأمم؛ لأن لديها إيمانها، وهو ما يقرر العدل في الأرض ويحقق السلام والإصلاح، ويشيع في جوانب الحياة كل معروف، ويطهرها من كل منكر. ويومها يفيء الناس في ظلال الإيمان أحبة آمنين. قال الله تعالى:

﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ﴾ [آل عمران: ١١٠].

ويقرر القرآن الكريم أن أهل الإيمان والحق حين يمكن الله لهم في الأرض فهم ينصرون دين الله ويرفعون راية العدل الإلهي.

ويقيمون شعائر الدين وأحكامه، ويؤدون الأمانة الإلهية على أكمل وجه، أمرًا بالمعروف ونهيًا عن المنكر. قال تعالى:

﴿الَّذِينَ إِن مَّكَّنَّاهُمْ فِي الأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنكَرِ وَلِلَّهِ عَاقِبَةُ الأُمُورِ﴾ [الحج: ٤١].

وقد أكد الله تعالى روح هذه الوحدة وجوهر هذا التضامن الإسلامي في حب بين المؤمنين وموالاة ورغبة في الخير والإصلاح، فقال:

﴿ وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَيُقِيمُونَ الصَّلاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَيُطِيعُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُوْلَئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾ [التوبة: ٧١].

أساس الخير

والوحدة أساس كل خير في دنيا الناس وآخرتهم، والفُرقة أخطر الآفات التي تقضي على سعادة المجتمعات والشعوب، وترديهم في مهاوي التهلكة، وتجرهم إلى وحل المعصية، وتظل تفرقهم شيعًا حتى تجعلهم ينفصلون عن الدين. قال تعالى: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيَعًا لَّسْتَ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ إِنَّمَا أَمْرُهُمْ إِلَى اللَّهِ ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ ﴾ [الأنعام: ١٥٩].

بل إن العلم نفسه، وهو من أهم دعائم الأمم، حين لا تخلص فيه النية لله تعالى ويخلو من روح الإخلاص ـ تتسرب إلى ميدانه آفات ورذائل، فتميل به يمنة أو يسرة فتكون النتيجة هي الاختلاف من جراء البغي والحسد والعناد والتعصب.

فدعوة الوحدة، إذن، لا بد لها من فكر صاف مستنير لا تشوبه آفات الفرقة والاختلاف، ولذا نجد القرآن الكريم حين ينبه إلى هذا الخطر الداهم من جراء البغي والعصبية يدعو إلى أساس من التوحيد الخالص والتمسك بهذا الدين الحنيف. قال سبحانه: ﴿ إِنَّ الدِّينَ عِندَ اللَّهِ الإِسْلامُ وَمَا اخْتَلَفَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ إِلاَّ مِن بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ وَمَن يَكْفُرْ بِآيَاتِ اللَّهِ فَإِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ ﴾ [آل عمران: ١٩].

أساس الوحدة

وكما بيّن الله أن أساس الفرقة والاختلاف يكون من التعصب والبغي والحسد والعناد وما إلى ذلك، فقد بيّن أساس الوحدة التي يدعو إليها الإسلام، وذلك هو الدين والاعتصام بحبل الله، ففي ذلك القوة والخير والسعد والفوز في الدنيا

والآخرة. ولطالما تعثرت خطا البشرية بأشواك الحياة الجافة القاسية، واضطربت في جو ملبد خانق، فبينما كانت تعاني من ظلام دامس واضطراب في شتى نواحي الحياة، كانت وطأة الصراع المادي وكان بطش القوي بالضعيف وتطاول الغني على الفقير، حتى جاء الإسلام بظلاله الوارفة، وقوانينه العادلة، وكتابه الحق، ورسوله البشير النذير الذي أخرج الناس من الظلمات إلى النور، فهدى الناس من الضلالة ووحدهم من فُرقة وخلصهم من أثقال وأغلال، وهداهم إلى صراط مستقيم.

التحذير من الفرقة

ولقد دعم الإسلام أواصر الوحدة وذكر الناس بفضل الله عليهم بكل ذلك، وحذر المؤمنين أن يطيعوا دعاة الفرقة والاختلاف، وذكرهم بما كان عليه الأوس والخزرج قديمًا حين دبت العداوة في صفوفهم ونشبت بينهم الحروب المتطاولة حتى جاء الإسلام فأطفأ نار الفتنة وأخمد شرها وجمعهم على كلمة الحق وألف بينهم برسول الله ﷺ.

وتدعيمًا لأصول تلك الوحدة وترسيخًا لبنائها كلف الله تعالى هذه الأمة بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر انتصاراً للدين ودفعًا لآفات الشر والفساد التي قد تثار حول حماه أو ترتكب في الوطن الإسلامي.

وقد وجه الرسول ﷺ أمته إلى أساس الوحدة، وهو الاعتصام بحبل الله. عن أبي هريرة - رضي الله عنه - قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الله تعالى يرضى لكم ثلاثًا ويكره لكم ثلاثًا. فيكره لكم أن تعبدوه ولا تشركوا به شيئًا، وأن تعتصموا بحبل الله جميعًا ولا تفرقوا، وأن تناصحوا من ولاَّه الله أمركم. ويكره لكم القيل والقال، وكثرة السؤال، وإضاعة المال»[1].

وهكذا وجّه الحديث إلى التحذير من الفُرقة والاختلاف ﴿ولا تَفَرَّقوا﴾ وجاء هذا النهي بعد الأمر بالاعتصام بحبل الله لبيان أن من اعتصم بحبل الله فهو بعيد عن التنازع، بعيد عن التفرقة. أما الإعراض عنه والتماس الاعتصام بغيره، ففيهما الضلال «من التمس الهدى في غيره أضله الله»[2].

---

(١) رواه مسلم ومالك.
(٢) رواه الترمذي والدارمي.

والناظر إلى التشريع الإسلامي يجده قد دعا المسلمين إلى الوحدة عن طريق عملي وتطبيقي، كما دعا إليها في سائر نداءاته ووصاياه من خلال الهدى القرآني والسنة المشرفة. لقد طبق الرسول ﷺ معالم الوحدة والتضامن ووحد بين المسلمين في أول أساس من أسس المجتمع الإسلامي في المدينة، حيث آخى بين المهاجرين والأنصار وأبرم وثيقة هذا التضامن في صورة من الوحدة والأخوة والتعاون بشكل لا تعرف الدنيا له مثيلاً.

وتمضي تشريعات الإسلام في غرس أصول الوحدة وتقوية روح التضامن بين المسلمين في الصلاة وفي الصوم وفي الزكاة وفي الحج. فصلاة الجماعة لها من المثوبة ما يزيد على صلاة الفرد، وفي صلاة الجمعة اجتماع أسبوعي كبير، وفي صلاة العيدين اجتماع أكبر في كل عام، ثم في فريضة الحج اجتماع أكبر وأعظم.

ويؤكد الرسول ﷺ جوهر الوحدة في قوله: «يأيها الناس، ألا إن ربكم واحد وإن أباكم واحد. ألا لا فضل لعربي على أعجمي ولا لعجمي على عربي، ولا لأحمر على أسود ولا لأسود على أحمر إلا بالتقوى»(١).

---

(١) رواه أحمد.

التعـاون

ومن أسس التضامن الإسلامي: «التعاون»، فالمسلم متعاون مع إخوانه المسلمين على أساسين ثابتين؛ فأما الأساس الأول فهو البر، وأما الأساس الثاني فهو التقوى. قال تعالى: ﴿وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَىٰ وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ﴾ [المائدة: ٢]. ومن قاعدتي البر والتقوى يكون تعاون المسلم مع أخيه المسلم ومع سائر المسلمين أفرادًا وجماعات. وقد وضح القرآن الكريم كلا من البر والتقوى، قال تعالى في شأن البر: ﴿لَيْسَ الْبِرَّ أَن تُوَلُّوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَٰكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ وَآتَى الْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَالسَّائِلِينَ وَفِي الرِّقَابِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَالْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ﴾ [البقرة: ١٧٧].

وأما الأساس الثاني الذي يقوم عليه تعاون المسلم مع إخوانه فهو التقوى، وقد حدد القرآن الكريم ملامح شخصية المتقين المتعاونين في قوله: ﴿وَسَارِعُوا إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ ﴿١٣٣﴾ الَّذِينَ يُنفِقُونَ فِي السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ ﴿١٣٤﴾ وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ وَمَن يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلَّا اللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّوا عَلَىٰ مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿١٣٥﴾ أُولَٰئِكَ جَزَاؤُهُم مَّغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَجَنَّاتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَنِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ﴾ [آل عمران: ١٣٣ - ١٣٦].

وإذا كان للتعاون هذان الأساسان: البر والتقوى، فإن للتعاون دائرة إنسانية عريضة قوية الوشائج، مشرقة بالإصلاح والتقوى والمرحمة. إنها أخوة الإيمان التي تقتضي على المسلم من أول وهلة أن يخفّ لنجدة إخوانه المسلمين، فإن

تخاصموا أصلح بينهم، وأن يلتزم التقوى في كل خطاه. والنتيجة المترتبة على ذلك هي رحمة الله سبحانه وتعالى، كما قال جل شأنه: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ [الحجرات: ١٠].

ويقول الله تعالى مبيّنًا ولاء المؤمنين مع بعضهم البعض: ﴿وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ﴾ [التوبة: ٧١]. ولا ولاء أو مودة بين المؤمنين وبين من حادّوا الله ورسوله، فمن عادى الإسلام وحاول الوقوف ضده لا تصح موادته. قال سبحانه: ﴿لا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ﴾ [المجادلة: ٢٢]. إن هذه العلاقات التي ربطت بين الابن وأبيه، وبين الأخ وأخيه تنفصم بمجرد مخالفة أحدهم للإسلام أو وقوفه في وجه الدعوة لهذا الدين. وللتعاون أثره والجزاء عليه في الدنيا والآخرة، روى الإمام أبو داود في سننه بسنده عن أبي هريرة - رضي الله عنه - عن النبي ﷺ أنه قال: «من نفّس عن مسلم كربة من كرب الدنيا نفّس الله عنه كربة من كرب يوم القيامة، ومن يسر على معسر يسر الله عليه في الدنيا والآخرة، ومن ستر على مسلم ستره الله في الدنيا والآخرة، والله في عون العبد ما كان العبد في عون أخيه»(١). وتأكيداً للتعاون بين المسلم وأخيه حرم الإسلام الخصومة فوق ثلاث، وجعل أفضل المتخاصمين من يبدأ أخاه بالسلام، قال ﷺ: «لا يحل لمسلم أن يهجر أخاه فوق ثلاث، يلتقيان فيعرض هذا ويعرض هذا، وخيرهما الذي يبدأ بالسلام»(٢).

وترسيخًا لأصول التعاون، ومساندة البناء الإنساني، عني الإسلام بإصلاح ذات البين، وضاعف عليها المثوبة؛ لأن السعي بين الناس بالخير والاجتهاد في إزالة الشقاق من نفوسهم، وغرس المحبة وأسباب التآلف والتعاطف من أعظم القربات. عن أبي الدرداء قال: قال النبي ﷺ: «ألا أخبركم بأفضل من درجة الصيام والصلاة والصدقة؟ قالوا: بلى يا رسول الله. قال: إصلاح ذات البين، فإن

---

(١) رواه أبو داود.
(٢) رواه البخاري ومسلم.

فساد ذات البين هي الحالقة. لا أقول تحلق الشعر، ولكن تحلق الدين»[1]. وقال الله تعالى: ﴿لا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِّن نَّجْوَاهُمْ إِلاَّ مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلاحٍ بَيْنَ النَّاسِ وَمَن يَفْعَلْ ذَلِكَ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ [النساء: ١١٤]. والمسلم آلف ومألوف، ومحب وعطوف، ولا يميل في تعاطفه ومجالسته إلا لمن كان صالحًا، ولا يجالس إلا الأخيار. ولقد ضرب رسول الله صلوات الله وسلامه عليه المثل بالجليس الصالح وجليس السوء في قوله: «إنما مثل الجليس الصالح وجليس السوء كحامل المسك ونافخ الكير، فحامل المسك إما أن يحذيك وإما أن تبتاع منه، وإما أن تجد منه ريحًا طيبة. ونافخ الكير إما أن يحرق ثيابك، وإما أن تجد منه ريحًا خبيثة»[2]. وينقي الإسلام شخصية المسلم من بعض الآفات والرذائل التي تحول بينه وبين التعاون وعمل الخير. عن أنس بن مالك أن النبي ﷺ قال: «لا تباغضوا ولا تحاسدوا ولا تدابروا، وكونوا عباد الله إخوانًا، ولا يحل لمسلم أن يهجر أخاه فوق ثلاث ليال»[3].

الإسلام دين التعاون

إن الإسلام هو دين التعاون والتضامن، والمحبة والألفة، يدعو أتباعه إلى التعاون على البر والتقوى، وينهاهم عن التعاون على الإثم والعدوان، فقال الله جل شأنه: ﴿وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَىٰ وَلا تَعَاوَنُوا عَلَى الإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ﴾ [المائدة: ٢]؛ لأن التعاون على البر والتقوى يتمثل في أن يكون كل فرد بارًا بأخيه، وسندًا له، وعونًا في كل أمور البر والتقوى. وفي هذه الدائرة الخيرة تتسع أعمال الخير والمصلحة العامة، فدائرة البر والتقوى تتسع لكل الأعمال الصالحة والأقوال الصادقة والنيات الخيرة، كما تشمل جوانب العقيدة والعبادة والأخلاق، كما قال الله تعالى: ﴿لَّيْسَ الْبِرَّ أَن تُوَلُّوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَالْمَلائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ وَآتَى الْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ

---

(١) رواه الترمذي.
(٢) رواه البخاري.
(٣) رواه أبو داود والبخاري ومسلم والترمذي.

﴿وَالْمَسَاكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَالسَّائِلِينَ وَفِي الرِّقَابِ وَأَقَامَ الصَّلاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَالْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ أُوْلَئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ﴾ [البقرة: ١٧٧].

وحين ينهى الإسلام عن التعاون على الإثم والعدوان، فهو يريد قطع روابط الشر والإثم التي يتجمع البعض بها، ويبرر لنفسه وسائل العصيان التي تتمثل في مخالفة الحق، وفي التسلط على حقوق العباد، وفي العنف أو القسوة، وفي العدوان على دمائهم أو أموالهم أو أعراضهم، وهي الحرمات التي أمر الإسلام بصيانتها؛ لأنها أغلى وأعز ما يحرص الناس عليه، بل من قُتل ـ دفاعًا عنها وفي سبيلها ـ فهو شهيد، ففي الحديث: «من قُتل دون ماله فهو شهيد، ومن قُتل دون أهله فهو شهيد، من قُتل دون دينه فهو شهيد، ومن قُتل دون دمه فهو شهيد»[١].

وقد أكد رسول الله ﷺ هذه الحرمات في حجة الوداع حين قال: «إن دماءكم وأموالكم وأعراضكم عليكم حرام كحرمة يومكم هذا في شهركم هذا في بلدكم هذا...»[٢].

إن دعوة الإسلام إلى التضامن، هي تحقيق للخير بين الأفراد والجماعات، وبين الأمم والشعوب، وهل هناك من تأكيد على السموّ بالروابط الأخوية أعظم مما وصّى به الإسلام حين جعل كمال العقيدة وتمام الإيمان منوطين بهذه الرابطة، بحيث يحب الإنسان لأخيه ما يحب لنفسه؟ حيث قال رسول الله صلوات الله وسلامه عليه: «لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه»[٣].

فهل من الإيمان أن يتسلط الإنسان على أخيه الإنسان؟!

وهل من الإيمان أن يعادي بعضنا بعضا؟!

وهل من الإيمان أن يستحل البعض دماء الآخرين أو أموالهم أو أعراضهم؟!

إن جوهر الإسلام وركيزته الكبرى تتمثل في الرحمة، ولذا جاء التعبير القرآني الكريم ـ ينعت رسالة الرسول ﷺ ـ بأسلوب الحصر في الرحمة، فقال تعالى:

---

(١) رواه النسائي عن سعيد بن زيد.
(٢) رواه البخاري ومسلم.
(٣) رواه البخاري ومسلم.

﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾ [الأنبياء: ١٠٧]، ولم يقل: «رحمة للناس»؛ لأنه رحمة لغير الناس بما تضمنته تعاليمه الرحيمة من الدعوة إلى الرحمة بالحيوان والطير وسائر المخلوقات. ولم يقل: «رحمة للمؤمنين» ولا «للطائعين»؛ لأن الرحمة شملت غير المؤمنين وغير الطائعين، فالكل يعيش في كون الله الفسيح ويأكل ويشرب ويتنفس بنعم الله التي سخرها للجميع في الحياة الدنيا. إنه حقا رحمن الدنيا، وفي الحديث الشريف يقول صلوات الله وسلامه عليه: «إن الله قسم الرحمة مائة جزء، حبس عنده تسعة وتسعين جزءاً يرحم بها الخلق يوم القيامة، وأنزل في الأرض جزءاً واحداً، فمن ذلك الجزء يتراحم الخلق حتى ترفع الفرس حافرها عن ولدها خشية أن تصيبه»[1].

إن ديناً جوهر رسالته الرحمة والتضامن والتعاون، لجدير بمن يتبعه أن يصون حماه، وأن يتواصى بالحق وبالصبر، وأن يطبق المنهج الرباني الذي يدعونا إلى التعاون والتساند، وإلى أن نكون عباد الله إخواناً، وحتى مع الذين زلت بهم الأقدام. نهانا ديننا الحنيف عن أن نُعين الشيطان عليهم، حين نغلق في وجوههم أبواب الرحمة أو نقنطهم من عفو الله، فالله سبحانه وتعالى يحب التوابين ويحب المتطهرين، ويبغض الذين يسيئون الظن في رحمة الله، أو الذين ييأسون من عفوه، ﴿إِنَّهُ لا يَيْأَسُ مِن رَّوْحِ اللَّهِ إِلاَّ الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ﴾ [يوسف: ٨٧].

إن تضامن المجتمع وتعاونه لا يقتصران على الجوانب المادية فحسب، بل يشملان التعاون على نشر الأمن والطمأنينة، والاستقرار والسكينة، والتضامن بين الجميع على أساس من الإيمان وقيام العدل ورفع الظلم، فإن ثمرة الإيمان الحق ورفع الظلم تتمثل في «الأمن» حيث قال رب العزة سبحانه وتعالى: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُم بِظُلْمٍ أُوْلَئِكَ لَهُمُ الأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ﴾ [الأنعام ٨٢].

فالطريق إلى إقرار «الأمن» هو الإيمان والعدل، فنلاحق ظواهر الظلم والظالمين، ونقيم العدالة في ربوع المجتمع، فإن نهاية الظلم أليمة، وعاقبته وخيمة، وقد بين رب العزة أن الظلم سبب الدمار: ﴿فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خَاوِيَةً بِمَا ظَلَمُوا﴾ [النمل: ٥٢].

---

(١) رواه البخاري ومسلم.

سماحة التشريع الإسلامي

سر انتشاره

ومن أسس التضامن سماحة التشريع الإسلامي، فمن أبرز سمات التشريع الإسلامي: سماحته ويُسر أحكامه، فليس فيه حرج ولا مشقة، ولا عسر ولا تنفير، بل فيه اليسر والرحمة، والخير والتبشير.

والذي يتصفح تعاليم الإسلام يرى هذه الحقيقة واضحة بأجلى معانيها وأوضح صورها ونماذجها في العقيدة والعبادة والمعاملة.

أما في العقيدة: فليس فيها تعقيد ولا غموض، ولا نظرية جانحة ولا فلسفة حائرة، بل تتركز عقيدته في الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر والقدر خيره وشره، حلوه ومره.

وليس في عقيدته إيمان بما جاء به البشر، بل إيمان بما أنزله الله على رسوله ﷺ، ﴿آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ ...﴾ [البقرة: ٢٨٥].

وليس في عقيدته عصبية ممقوتة، بل احترام لما أنزله الله وإيمان به، واحترام لجميع رسل الله تعالى وإيمان بهم دون تفريق بين أحد من رسله ﴿...كُلٌّ آمَنَ بِاللَّهِ وَمَلائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِ﴾ [البقرة: ٢٨٥].

وأما في العبادة: فهي عبادة ميسورة، في وسع كل إنسان أن يأتي بها، فلا صعوبة فيها، ولم يكلف الله تعالى عباده إلا بما هو في وسعهم ﴿لا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلاَّ وُسْعَهَا﴾ [البقرة: ٢٨٦].

وقد شرع الله العبادة وأحكامها ومع يسرها، فقد رفع الحرج عنها ﴿وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ﴾ [الحج: ٧٨] فمن لم يستطع الوضوء بالماء لتعب أو مرض أو جرح يمنعه من الماء، أو لأنه لم يجد الماء بل فقده، شرع الله له التيمم

بالتراب الطاهر، ﴿... فَلَمْ تَجِدُوا مَاءً فَتَيَمَّمُوا صَعِيدًا طَيِّبًا﴾ [النساء: ٤٣]. وشرع الله الصلاة، وما فيها من قيام وقعود، وركوع وسجود، ومع يسر هذه العبادة، فقد رفع الحرج عنها، ورخص لغير القادر على القيام أن يصلي من قعود، ولغير القادر على أدائها من قعود أن يؤديها مضطجعًا، ولغير القادر على أدائها مضطجعًا أن يؤديها بإشارة من رأسه، ولغير القادر على ذلك أن يشير برموش عينيه، ولغير القادر على ذلك يُجري أركان الصلاة على قلبه، ولا يتركها ما دام عقله ثابتًا؛ لأنها الصلة بينه وبين خالقه. فانظر إلى أي مدى وصل التيسير ورفع الحرج، أن يكتفى بأن يجري الأركان على قلبه عند عجزه عن الحالات السابقة؟!

إنها الرحمة الإلهية، ﴿يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ﴾ [البقرة: ١٨٥].

وأما عبادة الصيام، فقد رخص الله تعالى للمريض والمسافر سفرًا طويلاً أن يفطرا ويقضيا الصوم في أيام أخر، قال تعالى: ﴿فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ وَعَلَى الَّذِينَ يُطِيقُونَهُ فِدْيَةٌ طَعَامُ مِسْكِينٍ فَمَن تَطَوَّعَ خَيْرًا فَهُوَ خَيْرٌ لَّهُ وَأَن تَصُومُوا خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ١٨٤]، وكذلك رخص للحامل والمرضع في الإفطار والقضاء في أيام أخرى.

وأما في الحج، فإنه لم يشرعه في كل شهر ولا في كل سنة، بل أوجبه الله تعالى مرة واحدة في العمر كله، ولم يفرضه على الجميع، بل على المستطيع فحسب. قال سبحانه: ﴿وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلاً﴾ [آل عمران: ٩٧].

وإذا نظرنا إلى سماحة الإسلام في المعاملات، وجدنا الهدى النبوي يرشد إلى السماحة في كل المعاملات من بيع وشراء واقتضاء. عن جابر بن عبد الله - رضي الله عنهما - أن رسول الله ﷺ قال: «رحم الله رجلاً سمحًا إذا باع وإذا اشترى وإذا اقتضى»[1].

وإقرارًا لروح السماحة والتراحم بين العباد في معاملاتهم، يُنبئنا الرسول صلوات الله وسلامه عليه عن ثمرة ذلك في الآخرة، حيث يتجاوز الله تعالى عن

---

(١) رواه البخاري.

عباده الذين يتجاوزون ويتسامحون مع عباد الله، روى البخاري بسنده أن حذيفة - رضي الله عنه - قال: قال النبي ﷺ: «تلقت الملائكة روح رجل ممن كان قبلكم، فقالوا: أعملتَ من الخير شيئًا؟ قال: كنت آمر فتياني أن يُنظروا المعسر، ويتجاوزوا عن الموسر. قال: فتجاوز الله عنه»[1]. وعن ابن عمر - رضي الله عنهما - عن النبي ﷺ أنه قال: «من أراد أن تستجاب دعوته أو تكشف كربته، فليفرج عن معسر».

وكما راعى الإسلام السماحة في العقيدة والعبادات والمعاملات، فإنه راعى السماحة في معاملة المسلمين لغيرهم، ﴿لا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَارِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ﴾ [الممتحنة: ٨].

بل قرر الإسلام حماية أهل الذمة المستأمنين ما داموا في دار الإسلام، وهذا الحق الذي قرره الإسلام لحمايتهم يجب أن يعمل به أهل الأديان الأخرى في معاملة الأقليات الإسلامية؛ حماية لهم وتمكينًا لعبادتهم، حتى يتم التعاون بين عنصري الأمة.

ولننظر كيف أكّد الإسلام على حقوق أهل الكتاب والمعاهدين. قال رسول الله ﷺ: «ألا من ظلم معاهدًا أو كلفه فوق طاقته، أو أخذ منه شيئًا بغير طيب نفس منه - فأنا حجيجه يوم القيامة»[2].

ومن وصايا سيدنا عمر بن الخطاب - رضي الله تعالى عنه: «أوصيكم بذمة الله، فإنه ذمة نبيكم ورزق عيالكم».

وإرساءً لأسس التعاون والتواصل بين عنصري الأمة، أحل الله طعامهم، فقال: ﴿وَطَعَامُ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حِلٌّ لَّكُمْ وَطَعَامُكُمْ حِلٌّ لَّهُمْ﴾ [المائدة: ٥]، وشرع الزواج بالمرأة الكتابية، ولا رابطة في الظواهر الاجتماعية أقوى من ذلك. قال تعالى: ﴿وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الْمُؤْمِنَاتِ وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ﴾ [المائدة: ٥].

---

(١) رواه البخاري.
(٢) رواه البيهقي.

ومما يدل على انتشار الإسلام بسماحته وحسن معاملة المسلمين لغير المسلمين، هذه الواقعة التي حدثت بين الإمام علي بن أبي طالب - كرم الله وجهه - وبين رجل من أهل الكتاب، وذلك عندما فقد الإمام علي - رضي الله عنه - درعه، ثم وجدها عند هذا الرجل الكتابي، فجاء به إلى القاضي شريح قائلاً: إنها درعي، ولم أبع ولم أهب. فسأل القاضي شريح الرجل الكتابي قائلاً: ما تقول فيما يقول أمير المؤمنين؟ فقال الرجل: ما الدرع إلا درعي، وما أمير المؤمنين عندي بكاذب.

فالتفت القاضي شريح إلى الإمام علي - رضي الله عنه - يسأله: يا أمير المؤمنين، هل من بيّنة؟ فضحك علي وقال: أصاب شريح، ما لي من بينة. فقضى بالدرع للرجل، فأخذها ومشى وأمير المؤمنين ينظر إليه، إلا أن الرجل لم يخطُ خطوات حتى عاد يقول: أما أنا فأشهد أن هذه أحكام أنبياء. أمير المؤمنين يدينني إلى قاضيه فيقضي عليه؟! أشهد أن لا إله إلا الله، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله. الدرع، والله، درعك يا أمير المؤمنين. انبعث الجيش وأنت منطلق إلى صفّين، فخرجت من بعيرك الأورق. فقال الإمام علي - رضي الله عنه: أما إذا أسلمت فهي لك.

وهكذا نرى كيف وصلت سماحة الإسلام إلى هذا المدى الذي يقف فيه أمير المؤمنين نفسه أمام القاضي مع رجل من أهل الكتاب، ومع أن أمير المؤمنين على حق، فإن القاضي طالبه بالبينة، وهذا أمر جعل أمير المؤمنين يضحك؛ لأنه على حق وليس معه بينة. وواضح أنه المدّعي، والبينة على المدعي واليمين على من أنكر. ثم تكون النهاية أن يحكم القاضي للرجل بالظاهر، حيث لم تظهر البينة.

إن هذه المعاملة السمحة التي لا يُفَرّق فيها بين أمير وواحد من الرعية من أهل الكتاب، جعلت الرجل يفكر في هذا الدين ويتملكه الإعجاب بهذا الدين، والذي يقف فيه أمير المؤمنين أمام قاضيه ويحكم قاضيه عليه لا له، بظاهر ما أمامه وإن كان ذلك خلاف الواقع. فأنطق الله الرجل أن يقول: أما أنا فأشهد أن هذه أحكام أنبياء. وقال: أشهد أن لا إله إلا الله، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله. ويعترف ويقر بالحقيقة قائلاً: الدرع، والله، درعك يا أمير المؤمنين، انبعث الجيش وأنت منطلق إلى صفين، فخرجت من بعيرك الأورق. ولكنه وقد اعترف وأحب

الإسلام ودخل فيه - جعل أمير المؤمنين يتنازل عن الدرع للرجل قائلاً: أما إذا أسلمت فهي لك.

إنها صورة من صور القضاء في قمة عدالته، حيث يسوي بين هذا الرجل وأمير المؤمنين، وصورة من سماحة الإسلام في ذروتها، حيث كان الحكم بالظاهر وعلى أمير المؤمنين لا له. إن مثل هذه المعاملة السمحة مع غير المسلمين هي التي قربت الإسلام إلى الناس وجعلتهم يدخلون في دين الله أفواجًا.

أما صور التعصب الممقوت التي يساء فيها إلى الإسلام، فإنها لا تدفع الناس إلى الدخول فيه، بل تدفعهم إلى النفور منه.

ومن أجل هذا كان القرآن الكريم يجلّي هذه الحقيقة ﴿لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ﴾ [البقرة: ٢٥٦] وأيضًا لا حرج فيه ولا مشقة ﴿وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ﴾ [الحج: ٧٨].

إنه دعوة إلى اليسر والتسامح، لا إلى العسر والغلظة، ﴿يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ﴾ [البقرة: ١٨٥].

وإذا كان التسامح وحسن المعاملة وعدم التعصب، أمورًا مطلوبة من المسلمين في معاملتهم مع غير المسلمين، فإنها كذلك مطلوبة من غير المسلمين مع المسلمين، حتى تتم معاملة كل طرف للآخر في دائرة التعاون والتضامن، فلا يسيء أحدهم إلى الآخر، بل يتعاملون بروح الفريق الواحد في الوطن الواحد.

سماحة الإسلام بين أهل الأديان

ومن أسس التضامن سماحة الإسلام مع أهل الأديان؛ لأن انتشار الإسلام، واعتناق الناس له ودخولهم في دين الله أفواجًا، هو منهاجه الرباني الذي أنزله رب العزة - سبحانه وتعالى - على رسوله - صلوات الله وسلامه عليه - هذا المنهاج الذي أمر الله تعالى فيه بالدعوة بالحكمة والموعظة الحسنة والمجادلة بالتي هي أحسن.

إنه منهج دعوة، وليس إكراهًا ولا تشددًا ولا عنفًا. قال الله تعالى: ﴿ادْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ [النحل: ١٢٥].

وما أقر الإسلام العنف ولا التشدد، ﴿لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَد تَّبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ﴾ [البقرة ٢٥٦]، وقال سبحانه لموسى وهارون - حين بعثهما إلى فرعون الذي ادعى الألوهية: ﴿فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لَّيِّنًا لَّعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ﴾ [طه: ٤٤]، وعندما خافا أن يبطش بهما، بيّن الله تعالى أنه معهما يسمع ويرى ويؤيدهما في دعوتهما، فالله سبحانه وتعالى يؤيد كل داع يستجيب لمنهاجه ويدعو بالقول اللين الذي لا ينفّر، فقال تعالى - ردًا عليهما: ﴿لَا تَخَافَا إِنَّنِي مَعَكُمَا أَسْمَعُ وَأَرَىٰ﴾ [طه: ٤٦].

وقد ضرب رسول الله - صلوات الله وسلامه عليه - أروع الأمثلة في التسامح، فكان لين الجانب، طيب المعاملة، سمحًا في كل الأمور حتى مع أعدائه الذين حاربوه من قبل، كما حدث مع ثمامة بين أثال الذي عرض عليه الإسلام ثلاث مرات، وكان لا يقبل في كل مرة حتى أمر النبي ﷺ بإطلاق سراحه، فكان هذا العفو والتسامح سببًا في دخول الرجل في الإسلام، وقال: أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمدًا رسول الله، وأقر الرجل بما كان عليه قبل هذه المعاملة السمحة، من عداوة وكراهية للإسلام، فقال: إنه ما كان من بلد أبغض إليّ من بلدك، وقد أصبح أحب البلاد إليّ. وما كان من وجه أبغض إلي من وجهك، وقد أصبح أحبّ الوجوه إليّ. وما كان من دين أبغض إلي من دينك، وقد أصبح أحب الأديان إلي. وأنا أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أنك رسول الله. ودخل الإسلام بفضل سماحة النبي عليه الصلاة والسلام.

من أجل هذا قاوم الإسلام العصبية، ودعا إلى التسامح، ففي الحديث: «ليس منا من دعا إلى عصبية»[(١)].

ولم يقتصر تسامح الإسلام مع أهل الكتاب فحسب، بل إنه شمل حتى المشركين فدعا الإسلام إلى منحهم الجوار والأمان حين يطلبه أحد المشركين، وقال تعالى: ﴿وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَامَ اللَّهِ ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُ﴾ [التوبة: ٦].

بل إن الإسلام يعتبر ضرب الإنسان الفاجر أو المعاهد دون ذنب أو سبب جريمةً

---

(١) رواه أبو داود.

يتبرأ الرسول ﷺ من صاحبها، فيقول: «ومن خرج على أمتي يضرب برّها وفاجرها، لا يتحاشى من مؤمنها، ولا يفي لذي عهدها، فلستُ منه وليس منّي»(١).

فالإسلام لا يقر الظلم ولا العدوان، حتى على الفاجر أو من كان معاهداً، فالفاجر فجوره على نفسه وحسابه على الله، ولسنا مطالبين حياله إلا بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وبمراتب المقاومة التي أخبر بها الرسول ﷺ حين قال: «من رأى منكم منكراً فليغيره بيده، فإن لم يستطع فبلسانه، فإن لم يستطع فبقلبه وذلك أضعف الإيمان»(٢). وليس لأحد كائنا من كان أن يعطي نفسه الشرعية والحق في ضرب الناس أو إكراههم باسم الإسلام، فإنه بهذا التصرف يسيء إلى الإسلام وإلى سماحته.

وقد عُني الإسلام برعاية أهل الكتاب، فقرر سيدنا عمر بن الخطاب ـ رضي الله عنه ـ لهم كفالة من بيت مال المسلمين، فقد روي أنه مر بباب جماعة، فوجد سائلاً يسأل ـ وهو شيخ كبير ضرير ـ فسأله قائلا: من أي أهل الكتاب أنت؟ فقال: يهودي. فسأله: وما ألجأك إلى ما أرى؟ قال: أسأل الجزية، والحال والسن. فأخذ عمر بيده إلى منزله وأعطاه، ثم أرسل إلى خازن بيت المال فقال له: انظر هذا وضرباءه، فوالله ما أنصفناه أن أكلنا شبيبته ثم نخذله عند الهرم.

وما حدث في تاريخ سلفنا إهانة لأحد من أهل الذمة، بل إن حدث أي تجاوز كان يعالجه الإسلام في الحال، فعندما شكا إلى عمر أحدُ الأقباط ابنَ والي مصر عمرو بن العاص الذي لطم ابنه عندما غلبه ابن القبطي في السباق، وقال: أنا ابن الأكرمين ـ أسرع عمر ـ رضي الله عنه ـ وأمر بإحضار والي مصر وابنه إلى مكة في موسم الحج، وأعطى عمر الدرة لابن القبطي وأمره أن يقتص من ابن الأكرمين، ثم قال لعمرو كلمته المأثورة: «متى تعبدتم الناس وقد ولدتهم أمهاتهم أحراراً».

وقد أقام الإسلام العدل بين عنصري الأمة: المسلمين وغير المسلمين. ومن

---

(١)، (٢) رواه مسلم.

رسالة سيدنا عمر بن الخطاب - رضي الله عنه - إلى قاضي القضاة أبي موسى الأشعري قال له: «آس بين الناس في وجهك ومجلسك وقضائك؛ حتى لا يطمع شريف في حيفك ولا ييأس ضعيف من عدلك» فلا تصح التفرقة بين المتخاصمين، حتى ولو كان أحدهما غير مسلم، وقد روي أن يهوديا خاصم عليا - رضي الله عنه - إلى أمير المؤمنين عمر بن الخطاب، فنادى أمير المؤمنين عليا - رضي الله عنه - بقوله: قف يا أبا الحسن. فبدا الغضب على عليّ - رضي الله عنه - فقال له عمر - رضي الله عنه -: أكرهت أن نسوي بينك وبين خصمك في مجلس القضاء؟ فقال علي - رضي الله عنه -: لا، ولكني كرهتُ منك أن عظمتَني في الخطاب، فناديتني بكُنيتي، ولم تصنع مع خصمي اليهودي ما صنعت معي.

وهكذا نرى كيف عامل سلفنا أهلَ الكتاب، وكيف أظهروا سماحة هذا الدين الذي لا يقر العصبية ولا يرضى الظلم حتى لغير المسلمين، بل يدعو إلى التسامح والعدل معهم. وهذا المنهاج المتسامح للإسلام مع أهل الأديان الأخرى هو سر عظمة الإسلام وسرّ ذيوعه وانتشاره في ربوع المعمورة.

الشورى في الإسلام فريضة

الشورى في الإسلام فرضها الله تعالى ضمانا لحياة سديدة رشيدة، وأمانًا للأمة من أن يستبد أحد فيها برأي. وإذا كانت الشورى مطلوبة في كل أمر يُقدم عليه الفرد أو الجماعة، أو الحاكم أو المحكوم؛ لأنه ما ندم من استشار ولا خاب من استخار، فإنها تكون أشد طلبًا وأعظم باعثًا في أوقات الشدائد والمحن، وفي الحروب والأعمال الكبرى التي تتعلق بها مصائر الأمة، أو مصير جماعة من الجماعات أو قطاع من القطاعات.

ولا يحلّ لمسئول أن يستبد برأيه، لأن رأيه وحده نتاج عقل واحد، وأما آراء الآخرين الذين يستشيرهم فإنها نتاج عقول كثيرة، وكلٌّ له فهمه واجتهاده وخبرته، ولم يخلق الله تعالى العقول في مستوى واحد، والناس ليسوا سواء.

ومن هنا، كان لأخذ آراء الجميع واستشارتهم أهمية كبرى. ولأهمية الشورى في كل أمر ذكرها القرآن الكريم في صفات المؤمنين المهمة، بعد الصلاة وقبل الإنفاق، فجاءت وسطًا بين هاتين العبادتين، حيث قال الله سبحانه وتعالى: ﴿وَالَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمْ وَأَقَامُوا الصَّلاةَ وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ﴾ [الشورى: ٣٨].

وأمر الله تعالى بها رسوله صلوات الله وسلامه عليه، وهو النبي المعصوم، الذي يوحى إليه، ومع هذا أمره الله تعالى أن يستشير أصحابه، وجاء الأمر بذلك بعد غزوة أحد التي كان رأي من أشاروا بالخروج للحرب على غير ما يحب الرسول ﷺ، وحدث فيها ما حدث من بلاء.

ومع هذا كله يقول الله تعالى - مخاطبًا رسوله ﷺ: ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ لِنتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لانفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ﴾ [آل عمران: ١٥٩].

وقد طبق رسول الله ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ مبدأ الشورى عمليا، فاستشار أصحابه رضوان الله تعالى عليهم ـ في الخروج في غزوة بدر الكبرى، واستشار مَن له خبرة ودراية بالحروب والمواقع الحيوية في المكان الذي ينزل فيه جيش المسلمين، واستشار في شأن الأسرى . . . إلى غير ذلك من الأمور، مع أنه نبي معصوم ويوحى إليه من ربه سبحانه وتعالى.

وما ذلك إلا لأهمية الشورى ومكانتها في الإسلام، وأنها فريضة واجبة، ولأن فيها تقوية للرأي وتجميعًا لقلوب من يستشيرهم معه، ودعوة لاجتهادهم في الأمر وإخلاصهم فيه، وبذل أقصى ما في الوسع الإنساني فيما يستشارون فيه.

وحين يكون الذين يستشارون على درجة عالية من الكفاية في الشورى والورع والإخلاص والخبرة ـ فإن الأخذ بالشورى يصبح أمراً واجبا، وملزمًا وضروريا، وذلك لقول رسول الله ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ لأبي بكر وعمر ـ رضي الله عنهما: «لو اجتمعتما في مشورة لما خالفتكما»[1].

وعلى كل من تُطلب منه المشورة أن يعلم أنه مؤتمن عليها وأن واجبه أن يصون الأمانة وأن يؤديها بإخلاص وإتقان، وألا يشير بهوى أو غرض أو حاجة في نفسه، وألا يشير بما لا علم له به، أن يكون أمينًا فيما يشير به. عن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ عن النبي ﷺ أنه قال: «المستشار مؤتمن»[2].

وعلى من عنده الخبرة والعلم والدراية ألا يتوقف عن بذل الشورى لسبب ما من الأسباب، فلا يتوقف عن إعطاء الشورى خوفًا من أحد أو طمعًا فيما عند أحد، بل عليه أن يشير بالحق والصواب ابتغاء وجه الله سبحانه وتعالى، فقد قال رسول الله ـ صلوات الله وسلامه عليه: «إذا استشار أحدكم أخاه فليُشر عليه»[3]. ومما يؤكد الشورى واتباع رأي الذين يشيرون على الإنسان ما روي عن علي بن أبي طالب ـ رضي الله عنه ـ أنه قال: سُئل رسول الله ﷺ عن العَزْم، فقال: «مشاورة أهل الرأي ثم اتباعهم»[4]. فعلى من استشار وعرف طريق الحق والصواب أن يتبعه، وأن يلتزم به، وألا يحيد عنه.

---

(١) رواه أحمد.
(٢) رواه أبو داود والترمذي وابن ماجه، وروواه أحمد والدارمي عن أبي مسعود الأنصاري.
(٣) رواه الطبراني في الأوسط
(٤) رواه ابن مردويه.

ولقد وعى الخلفاء الراشدون ـ رضي الله عنهم ـ أهمية الشورى، فجعلها سيدنا أبو بكر الصديق ـ رضي الله عنه ـ أول مبدأ له حين تولى الحكم، وفتح للشورى أوسع الأبواب حين قال ـ ضمن ما قال: «إني وُلِّيت عليكم ولستُ بخيركم، فإن رأيتموني على حق فأعينوني، وإن رأيتموني على باطل فقوِّموني».

ورأينا سيدنا عمر بن الخطاب ـ رضي الله عنه ـ لا يتخلى عن الشورى طيلة حياته، بل لم تفارقه حتى وهو في النزع الأخير، لقد كان أول من قرر الشورى في انتخاب الخليفة، فعندما سألوه وقالوا له: مَن تُوصي به؟ قال للمقداد بن الأسود: إذا وضعتموني في حفرتي، فأدخل عليًا وعثمان والزبير وسعدًا وعبد الرحمن بن عوف وطلحة. وأحضر عبد الله بن عمر ـ ولا شيء له من الأمر ـ ليكون منهم الخليفة. ولم يشغله ما هو فيه من معاناة عن جمع رأي الأمة ومصلحتها، وفي هذا يقول حافظ إبراهيم شاعر النيل رحمه الله تعالى:

يا رافعًا راية الشورى وحارسها ... جزاك ربك خيرًا عن مُحبيها
لم يُلهك النَّزعُ عن تأييد دولتها ... وللمنية آلام تعانيها
وما استبد برأي في حكومته ... إن الحكومة تُغري مستبديها
رأي الجماعة لا تشقى البلاد به ... رغم الخلاف ورأي الفرد يشقيها

ولقد عاش حياته ـ رضي الله عنه ـ لا يأخذ قرارًا ولا يبرم أمرًا إلا بعد أن يستشير الكبار والصغار وأهل الرأي والخبرة، وكان يقول ـ رضي الله عنه: «أخوف ما أخافه عليكم إعجاب المرء برأيه».

ومما سبق يتضح لنا أن الشورى ملزمة، وأنه لا بد أن يستشار العلماء وأهل الرأي والخبرة، إلى جانب أولي الأمر. وبالله التوفيق.

من ركائز التضامن الإسلامي
أخوة الإسلام

قال تعالى: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ [الحجرات: ١٠].

في هذه الآية الشريفة يقرر الإسلام أخوة الإيمان، وأنها لا تتقيد بعلاقة النسب، فإن أخوة النسب تنفصم بمخالفة الدين، ولكن أخوة الدين لا تنفصم بمخالفة النسب. وفي الصحيحين عن أبي هريرة - رضي الله عنه - أنه قال: قال رسول الله ﷺ: «لا تحاسدوا، ولا تباغضوا، ولا تجسسوا، ولا تحسسوا، ولا تناجشوا، وكونوا عباد الله إخوانًا»[1]. والتجسس هو الاستماع لحديث القوم. والتناجش هو أن تزيد في ثمن السلعة دون رغبة في شرائها لتحريض الغير عليها. وفي رواية أخرى بلفظ مسلم يبيّن الرسول - صلوات الله وسلامه عليه - حقوق هذه الأخوة وواجباتها: «المسلم أخو المسلم؛ لا يظلمه ولا يخذله ولا يحقره. التقوى ههنا - ويشير إلى صدره ثلاث مرات - بحسب امرئ من الشر أن يحقر أخاه المسلم. كل المسلم على المسلم حرام: دمه وماله وعرضه»[2].

ومن الواجبات المترتبة على أخوة الإيمان بين المسلمين ما جاء في الآية الشريفة ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ﴾، فالإصلاح بين كل مسلمين أو طائفتين واجب تمليه أخوة الإيمان، وقد مهدت الآية الشريفة طريق الإصلاح بالتزام التقوى؛ حتى لا يحيد المصلحون ولا يحابي بعضهم بعضًا، بل يكون العدل رائدهم والتقوى طريقهم، وبهذا تتحقق الغاية الكريمة، وهي رحمة الله بالمؤمنين دنيا وأخرى ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾.

---

(١) رواه البخاري ومسلم.
(٢) رواه مسلم.

ويدعو القرآن الكريم جميع المؤمنين أن يُطهّروا البيئة الإسلامية من رذائل شتى :

منها الرذائل الظاهرة التي تتعلق بالجوارح، كالسخرية واللمز والتنابز بالألقاب.

ومنها الرذائل الباطنة التي تتعلق بالمشاعر، كالظن.

أما الأولى الظاهرة: فيقول فيها القرآن: ﴿يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِّن قَوْمٍ عَسَىٰ أَن يَكُونُوا خَيْراً مِّنْهُمْ﴾ [الحجرات: ١١]، فينهى الله تعالى عن سخرية بعض الناس ببعض، فعسى من سخروا منه أن يكون خيراً منهم عند الله تعالى؛ في عقيدته وفي عمله وفي باطن أمره. فإن مقاييس الخيرية ليست في المظهر ولا في الشكل، ولكنها فقط في التقوى ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ﴾ [الحجرات: ١٣]. وروى الإمام مسلم بسنده عن أبي هريرة - رضي الله عنه - أنه قال: قال رسول الله ﷺ : «إن الله لا ينظر إلى صوركم وأموالكم، ولكن ينظر إلى قلوبكم وأعمالكم»(١).

وإذا نظرنا إلى قوله تعالى ﴿يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِّن قَوْمٍ﴾ نرى أنه ورد في سبب نزوله آراء، منها: أنها نزلت في وفد بني تميم عندما استهزءوا بفقراء الصحابة أمثال عمار وبلال وخباب وابن فهيرة وصهيب وسلمان وسالم مولى أبي حذيفة وغيرهم، لما رأوه من رثاثة حالهم.

وقيل: نزلت في سخرية الغني بالفقير، وقيل في عكرمة بن أبي جهل، فعندما جاء إلى المدينة مسلمًا كان بعض المسلمين إذا رأوه قالوا: ابن فرعون هذه الأمة، فشكا ذلك إلى الرسول - صلوات الله وسلامه عليه - فنزلت هذه الآية. وقال ابن عباس: نزلت في ثابت بن شماس، كان في أذنه وقر، فإذا سبقوه إلى مجلس النبي ﷺ أوسعوا له حتى يجلس إلى جنبه ليسمع ما يقول، فأقبل ذات يوم وقد فاتته من صلاة الفجر ركعة مع النبي ﷺ ، فلما انصرف النبي ﷺ أخذ أصحابه مجالسهم منه، فرضي كل رجل منهم بمجلسه وعضوا فيه - أي لزموه - فلا يكاد

---

(١) رواه مسلم.

يوسع أحد لأحد حتى يظل الرجل لا يجد مجلسًا، فيظل قائمًا. فلما انصرف ثابت من الصلاة تخطى رقاب الناس ويقول: تفسحوا، تفسحوا. ففسحوا له حتى انتهى إلى النبي ﷺ وبينه وبينه رجل، فقال له: تفسح. فقال الرجل: قد وجدت مجلسًا فاجلس. فجلس ثابت من خلفه مغضبًا، ثم قال: من هذا؟ قالوا: فلان. فقال ثابت: ابن فلانة، يعيره بها، يعني أمًّا له في الجاهلية. فاستحى الرجل، فنزلت(١).

وقد نصت الآية على النساء كذلك، وأفردتهن بالذكر في النهي عن السخرية، وذلك لأن السخرية تقع كثيرًا منهم «فإنهن خُلقن من ضلع أعوج، وإن أعوجَ ما في الضلع أعلاه» ولذا نصّ عليهن فيقول: ﴿وَلَا نِسَاءٌ مِّن نِّسَاءٍ عَسَىٰ أَن يَكُنَّ خَيْرًا مِّنْهُنَّ﴾ [الحجرات: ١١]. وقد جاء في سبب نزولها أن امرأتين من أزواج الرسول - صلى الله عليه وسلم - سخرتا من أم سلمة عندما ربطت خصريها بثوب أبيض وسدلت طرفيها من خلفها، فكانت تجرها، فقالت عائشة لحفصة - رضي الله عنهما: انظري ما تجر خلفها كأنه لسان كلب، فهذه سخريتها. وقال أنس وابن زيد: نزلت فى نساء النبى ﷺ عيرن أم سلمة بالقصر. وقيل: نزلت فى عائشة أشارت بيدها: إنها لقصيرة، تعنى صفية بنت حيي - رضي الله عنها - وقال عكرمة عن ابن عباس: إن صفية بنت حيي بن أخطب أتت رسول الله ﷺ فقالت: يا رسول الله، إن النساء يعيرنني. فأنزلت هذه الآية.

وقد نهى الله تعالى كذلك عن اللمز (وهو العيب)، ويكون تعبيرًا باليد، أو العين أو اللسان أو الإشارة.

وأما الهمز فيكون باللسان. قال تعالى: ﴿وَلَا تَلْمِزُوا أَنفُسَكُمْ﴾ [الحجرات: ١١] ويدل هذا التعبير الحكيم على أن المؤمنين نفس واحدة، فلا يليق بهم أن يعيب بعضهم بعضًا، وكما لا يعيب المؤمن نفسه لا ينبغي أن يعيب غيره، فالمؤمنون كالجسد الواحد إذا اشتكي منه عضو تداعى له سائر الأعضاء بالسهر والحمى.

---

(١) الجامع لأحكام القرآن للقرطبي.

النهي عن التنابز

ومن الرذائل التي نهى عنها الإسلام: التنابز بالألقاب. قال تعالى: ﴿وَلَا تَنَابَزُوا بِالْأَلْقَابِ﴾ [الحجرات: ١١]. قيل إنها نزلت في بني سلمة، قدم رسول الله ﷺ وليس رجل إلا وله اسمان أو ثلاثة، فجعل رسول الله ﷺ يقول: يا فلان. فيقولون: مه يا رسول الله، إنه يغضب من هذا الاسم. فنزلت الآية. وقال الحسن ومجاهد: كان الرجل يعير بعد إسلامه بكفره، كأن يقال له: يا يهودي، يا نصراني، فنزلت الآية. وقال قتادة: وقول الرجل للرجل: يا فاسق، يا منافق.

قال تعالى: ﴿بِئْسَ الِاسْمُ الْفُسُوقُ بَعْدَ الْإِيمَانِ﴾ [الحجرات: ١١] يقول ابن زيد: أي بئس أن يسمى الرجل كافراً أو زانيًا بعد إسلامه وتوبته. وقيل: من لقب أخاه أو سخر منه فهو فاسق. أما بعض الصفات التي يكون ظاهرها الكراهة، ولكن لا يراد بها العيب حين التحدث بها فلا بأس. وقد سئل عبد الله بن المبارك عن الرجل يقول: حميد الطويل، سليمان الأعمش، وحميد الأعرج، ومروان الأصفر، فقال: إذا أردت صفته ولم ترد عيبه فلا بأس به.

وقد ختم الله تعالى الآية الكريمة التي نهى فيها عن تلك الرذائل بتهديد من تسول له نفسه الاسترسال في مثل هذه المعايب بأنه وقع في الهلاك وأصبح من الظالمين لأنفسهم لارتكابها، فقال تعالى: ﴿وَمَن لَّمْ يَتُبْ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ [الحجرات: ١١].

وإذا كان التنابز بالألقاب مما يعيب المسلم ويمزق ود الصدور، فإن بديله، وهو نداء المسلم بأحب الأسماء إليه، مما يصفي له ود أخيه. يقول ـ عليه الصلاة والسلام: «ثلاث يصفين لك ود أخيك: تسلم عليه إذا لقيته، وتوسع له في المجلس، وتدعوه بأحب أسمائه إليه»(١).

ومثال **النوع الثاني** ـ وهي الرذائل الباطنة التي تتعلق بالقلب والشعور ـ «ظن

---

(١) رواه الحاكم والطبراني في الأوسط والبيهقي في شعب الإيمان.

السوء»، وقد حذر الله تعالى من الظن في قوله: ﴿يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيراً مِّنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ﴾ [الحجرات: ١٢]. وقد نزلت هذه الآية الكريمة - كما قال أبو عبد الله القرطبي - في رجلين من أصحاب النبي ﷺ اغتابا رفيقهما، وذلك أن النبي ﷺ كان إذا سافر ضم الرجل المحتاج إلى الرجلين الموسرين، فيخدمهما، فضم سلمان إلى رجلين، فتقدم سلمان إلى المنزل فغلبته عيناه فنام، ولم يهيئ لهما شيئًا، فجاءا فلم يجدا طعامًا وإدامًا، فقالا له: انطلق فاطلب لنا من النبي ﷺ طعامًا وإدامًا. فذهب، فقال له النبي ﷺ: اذهب إلى أسامة بن زيد، فقل له إن كان عنده فضل من طعام فليعطك. وكان أسامة خازن النبي ﷺ، فذهب إليه، فقال أسامة: ما عندي شيء. فرجع إليهما وأخبرهما، فقالا: قد كان عنده ولنه بخل. ثم بعث سلمان إلى طائفة من الصحابة فلم يجد عندهم شيئًا، فقالا: لو بعثنا سلمان إلى بئر سميحة - وهي بئر قديمة بالمدينة بها ماء غزير - لغار ماؤها. ثم انطلقا يتجسسان هل عند أسامة شيء، فرآهما النبي ﷺ فقال: ما لي أرى خضر اللحم في أفواهكما؟ فقالا: يا نبي الله، والله ما أكلنا في يومنا لحمًا ولا غيره. فقال: ولكنكما ظللتما تأكلان لحم سلمان وأسامة. فنزلت الآية ﴿يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيراً مِّنَ الظَّنِّ﴾. وجاء في الصحيحين عن أبي هريرة - رضي الله عنه - عن النبي ﷺ قال: «إياكم والظن، فإن الظن أكذب الحديث»[1]. والظن الذي تحذر الآية منه هو الظن الذي يقوم على اتهام لا أساس له ولا سبب يوجبه.

ومن الرذائل المنهي عنها والمترتبة على سوء الظن: التجسس، وهو البحث عما يكون خفيا عن الإنسان، كمن يتجسس ليتهم إنسانًا بفاحشة أو بشرب الخمر مثلاً دون أن يبدو له ما يقتضي ذلك أو تظهر له علامة على تحقيق ظنه. فإن كان المظنون به مشهوراً بالصلاح والتقوى، فإن ظن السوء به حينئذ يكون محرمًا، هذا بخلاف من عرف واشتهر بين الناس بمخالفة الشرع والمجاهرة بالمعاصي، فلا يكون الظن به محرمًا.

---

(١) رواه البخاري ومسلم.

هذا، ويترتب على الظن التجسس ثم الغيبة، وذلك لأن مجرد التهمة يكون سببًا في البحث عما ساور الإنسان من خاطر، فيحاول التجسس ليتحقق مما يظنه، فينتقل من درجة الظن إلى درجة التجسس. ثم يدعوه وقوفه بالتجسس على بعض ما يعلم وما لا يعلم إلى غيبة أخيه، فينتقل إلى درجة أسوأ وحالة أكبر، وهي الغيبة، وهكذا.

وينقي الإسلام جو المجتمع على مختلف طبقاته ويوضح كيف يتفاقم الخطر من جراء الظنون السيئة بين الناس بعضهم مع البعض، بل بين الحاكم والمحكوم، فحين يبتغي الحاكم الريبة في الناس يفسد ذات بينهم. ويوضح الرسول ﷺ خطر الغيبة والتجسس ويبيّن نتائجهما السيئة التي لا تقتصر على الآخرة فحسب، بل إن المغتابين والمتجسسين ينالون جزاءهم في الدنيا وعقابهم فيها قبل الآخرة. قال ﷺ: «يا معشر من آمن بلسانه ولم يدخل الإيمان قلبه، لا تغتابوا المسلمين ولا تتبعوا عوراتهم، فإنه من اتبع عوراتهم يتبع الله عورته، ومن اتبع الله عورته يفضحه ولو في جوف بيته»[1]. ولذلك أدرك سلفنا الصالح خطر التجسس، فنهوا عنه وحذروا منه.

لقد كان سلفنا الصالح يدركون خطر التجسس ومدى حرمته، فكانوا يبتعدون عن التجسس وعن تتبع أسرار الناس، حتى ولو ترتب على ذلك إقامة حكم من أحكام الشريعة، أو إقامة حد من حدود الله، قال عبد الرحمن بن عوف: حرست ليلة مع عمر بن الخطاب ـ رضي الله عنه ـ بالمدينة إذ تبين لنا سراج في بيت بابه مجاف على قوم لهم أصوات مرتفعة ولغط، فقال عمر: هذا بيت ربيعة بن أمية بن خلف، وهما الآن شرب، فما ترى؟ قلت: أرى أنا قد أتينا ما نهى الله عنه. قال تعالى: ﴿وَلَا تَجَسَّسُوا﴾ وقد تجسسنا. وانصرف عمر وتركهم.

كفارة الغيبة

ومن الرذائل المنهي عنها: الغيبة. قال تعالى: ﴿وَلَا يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضًا﴾ [الحجرات: ١٢]. وقد فسر الرسول ﷺ معنى الغيبة، ففي صحيح مسلم عن أبي

---

(١) رواه أحمد وأبو داود والترمذي.

هريرة أن رسول الله قال: «أتدرون ما الغيبة؟ قالوا: الله ورسوله أعلم. قال: ذكرك أخاك بما يكره. قيل: أفرأيت إن كان في أخي ما أقول؟ قال: إن كان فيه ما تقول فقد اغتبته، وإن لم يكن فيه فقد بهته»(١).

وقد رأى رسول الله ﷺ ليلة الإسراء والمعراج صورة محسوسة لأولئك المعتدين المغتابين وكيفية عذابهم. عن أنس بن مالك قال: قال رسول الله ﷺ: «لما عرج بي مررت بقوم لهم أظفار من نحاس يخمشون بها وجههم وصدورهم، فقلت: من هؤلاء يا جبريل؟ قال: هؤلاء الذين يأكلون لحم الناس ويقعون في أعراضهم»(٢). وقد صور القرآن الكريم صاحب الغيبة في هيئة مستقذرة وصورة تدل على خسة الطبع ودناءة النفس وفساد القلب، قال تعالى: ﴿**أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ**﴾ [**الحجرات**: ١٢] فصور الله تعالى الغيبة بأكل الميتة؛ لأن الميت لا يعلم بأكل لحمه كما أن الحي لا يعلم بغيبته ممن اغتابه، ولننظر إلى تصوير الرسول ﷺ للغيبة. روى أبو هريرة ـ رضي الله عنه ـ أنه حين جاء ماعز إلى النبي ﷺ فشهد على نفسه بالزنا فرجمه الرسول ﷺ، فسمع نبي الله رجلين من أصحابه يقول أحدهما للآخر: انظر إلى هذا الذي ستر الله عليه فلم تدعه نفسه حتى رجم رجم الكلاب. فسكت عنهما، ثم سار ساعة حتى إذا مر بجيفة حمار شائل برجله فقال: أين فلان وفلان؟ فقالا: نحن يا رسول الله. قال: انزلا فكلا من جيفة هذا الحمار. فقالا: يا نبي الله، ومن يأكل هذا؟ قال: فما نلتما من عرض أخيكما أشد من الأكل منه، والذي نفسي بيده إنه لفي أنهار الجنة ينغمس فيها(٣).

وحكم الغيبة أنها من الكبائر. قال رسول الله ﷺ: «دماؤكم وأموالكم حرام عليكم»(٤). واتفق العلماء على أنها من الكبائر تجب التوبة إلى الله منها، واختلفت الآراء: هل يستحل المغتاب أم لا؟

فقال بعض العلماء: ليس عليه استحلاله، وإنما هي خطيئة بينه وبين ربه.

---

(١) رواه مسلم.
(٢) رواه أحمد وأبو داود.
(٣) رواه أبو داود.
(٤) رواه البخاري ومسلم.

واستدل أصحاب هذا الرأي بأنه لم يأخذ شيئًا من ماله، ولا أصاب من بدنه ما ينقصه؛ فليس في ذلك مظلمة يستحلها منه، وإنما المظلمة ما يكون في المال والبدن.

وذهبت فرقة أخرى إلى أن الغيبة مظلمة، وكفارتها الاستغفار لصاحبها. واستدلوا على ذلك بما روي عن الحسن: كفارة الغيبة أن تستغفر لمن اغتبته.

وذهبت فرقة ثالثة إلى أن الغيبة مظلمة، وعلى صاحبها الاستحلال منها. واستدلوا على ذلك بما أخرجه البخاري من حديث أبي هريرة - رضي الله عنه - قال: قال رسول الله ﷺ: «من كانت له مظلمة لأخيه من عرضه أو شيء فليتحلله منه اليوم قبل ألا يكون له دينار ولا درهم، إن كان له عمل صالح أخذ منه بقدر مظلمته، وإن لم يكن له حسنات أخذ من سيئات صاحبه فحمل عليه»[1].

والذي نرجحه هو الرأي الثالث القائل بأن على الذي اغتاب الاستحلال من غيبته لحديث البخاري، فهو يدل على التحليل. وحديث الرسول ﷺ هو الحجة والبيان الصحيح، ولأن التحليل كذلك يدل على التعاطف والتراحم، وهو من قبيل العفو. قال تعالى: ﴿فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ﴾ [الشورى: ٤٠]، اللهم إلا إذا ترتب على الاستحلال خطر شديد، ومخافة أن يجر إلى اندلاع فتنة كبرى، فإنه حينئذ يمسك عن الاستحلال حتى يواتيه الوقت الملائم له ويقوم بالتوبة والاستغفار لأخيه.

وأما الرأيان الثاني والأول، فنرى أن أصحاب الرأي الأول ينفون الاستحلال متعللين بأنه لم يصب مالاً ولا بدنًا، فليس في ذلك مظلمة. والحق أن إجماع العلماء منعقد على أن على القاذف للمقذوف مظلمة بأخذه بالحد حتى يقيمه عليه، وذلك ليس في البدن ولا في المال، فهذا دليل على أن الظلم في العرض والبدن والمال. وأما الرأي الثاني القائل: إنها مظلمة يستغفر لصاحبها، ففيه تناقض؛ لأن قولهم «مظلمة» يثبت ظلامة المظلوم، وإذا ثبتت لم يزلها عن الظالم إلا إحلال المظلوم له، وهذه الأحكام سارية في سائر المظالم.

---

(١) رواه البخاري وأحمد.

وأما صاحب الهوى والفاسق المعلن والإمام الجائر، فكل هؤلاء لا غيبة في حقهم، فإن من ألقى جلباب الحياء فلا غيبة له، بل إن ذكرهم بما هم عليه يحذر منهم ويكشف عوارهم. قال ﷺ : «اذكروا الفاجر بما فيه كي يحذره الناس»(١).
وإذا كانت واجبات الأخوة في الدين تقتضي تكريم المؤمن ونفي كل الرذائل عن دائرة نفسه ومجتمعه، وتحتم احترام المسلم لأخيه ومساعدته له وعدم التعرض بما يسيئه في نفسه أو ماله أو عرضه.

إذا كانت هذه وغيرها من أسمى المبادئ لتكريم الإنسان المسلم، فإن الله تعالى قد وسّع دائرة هذه الأخوة، فلم يجعل للأسرة الإسلامية حدودًا تحدّها قرابة أو نسب أو زمان أو مكان أو بيئة أو مجتمع، بل إن الإسلام فتح أمام أتباعه آفاق التعارف والتآلف. واستهدف من وراء جعله لهم شعوبًا وقبائل ـ التعارف المثمر الذي يكمل بعضهم بعضًا في إطاره المشرق.

ولم يجعل من اختلافهم في اللون أو اللغة أو المال أو القوة سببًا للتمايز والتعاظم، فنفى أن تكون هذه الأسباب أصولا للتكريم أو قواعد للتعظيم، وإنما جعل المعيار الحقيقي الذي توزن به منازلهم منحصراً في شيء واحد، هو «تقوى الله».

قال الله تعالى: ﴿ يَأَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴾ [الحجرات : ١٣].

(١) رواه ابن أبي الدنيا وابن عدي والطبراني.

حب الأوطان

من أسس التضامن الإسلامي: حب الأوطان؛ لأن محبة الأوطان من دلائل الإيمان، فما شرع الجهاد في سبيل الله إلا دفاعًا عن العقيدة والأوطان، وردّاً للظلم والطغيان، وتأمينًا لدعوة الإيمان، ونشراً للسلام والأمان.

ومما لا شك فيه أن في الجهاد بذلاً للمُهج والأرواح في سبيل الدفاع عن الدين والأوطان.

وللأوطان في دم كل حر يدٌ سلفت ودَين مستحقُّ
وللحرية الحمراء باب بكل يد مضرجة يُدقُّ

وقدوتنا في حب الأوطان هو سيدنا رسول الله - صلوات الله وسلامه عليه - فعندما خرج مهاجراً من مكة إلى المدينة نظر إلى البيت الحرام نظرات حانية ثم قال مخاطبًا مكة المكرمة، بلد الله الحرام ومسقط رأسه ومنزل الوحي وقبلة المسلمين: «والله إنك لخير أرض الله، وأحب أرض الله إلى الله، ولولا أني أخرجت منك ما خرجت»(١).

ثم توجه الرسول ﷺ إلى الله سبحانه وتعالى بهذا الدعاء: «الحمد لله الذي خلقني ولم أكُ شيئًا. اللهم أعني على هول الدنيا وبوائق الدهر ومصائب الليالي والأيام. اللهم اصحبني في سفري واخلفني في أهلي، وبارك لي فيما رزقتني، ولك فذللني، وعلى صالح خلقي فقوِّني، وإليك ربي فحببني، وإلى الناس فلا تكلني. أنت رب المستضعفين، وأنت ربي. أعوذ بوجهك الكريم الذي أشرقت

---

(١) رواه الترمذي.

له السموات والأرض، وكشفت به الظلمات، وصلح عليه أمر الأولين والآخرين أن تحل علي غضبك وتنزل بي سخطك. أعوذ بك من زوال نعمتك، وفجاءة نقمتك، وتحول عافيتك، وجميع سخطك. لك العتبى عندي خير ما استطعت، ولا حول ولا قوة إلا بالله».

وفي قوله ﷺ لمكة: «إنك لخير أرض الله، وأحب أرض الله إلى الله» ما يدل على حبه لها وعدم رغبته عنها إلا للضرورة، ولذلك لما خرج عليه الصلاة والسلام من مكة، فبلغ الجحفة اشتاق إلى مكة، فأنزل الله: ﴿إِنَّ الَّذِي فَرَضَ عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لَرَادُّكَ إِلَىٰ مَعَادٍ﴾ [القصص: ٨٥]. قال: إلى مكة.

ومما يدل على أن حب الأوطان من الإيمان قول الله تعالى: ﴿وَمَا لَنَا أَلَّا نُقَاتِلَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَقَدْ أُخْرِجْنَا مِن دِيَارِنَا﴾ [البقرة: ٢٤٦] والناس يحبون أوطانهم؛ ففيها حياتهم ونشأتهم، وبها تعلقت عواطفهم، وفيها تواصل الأرحام والإحسان إلى أهل الوطن من فقراء ومحتاجين، وفي كل جزء في الوطن عاطفة للإنسان ترتبط به ولا تفرط فيه.

وإذا كانت مكة وطنًا أول لرسول الله ﷺ فإن المدينة المنورة كانت الوطن الثاني الذي هاجر إليه، ودعا للمدينة ولأهلها ودعا بالبركة فيها حيث قال: «اللهم اجعل بالمدينة ضعفي ما جعلت بمكة من البركة»(١).

وتتجلى محبته - صلوات الله وسلامه عليه - للمدينة ومحبة أهل المدينة في استقبالهم له وحفاواتهم به وبالمهاجرين من أول لحظة قدم فيها المدينة، كما تتجلى محبته للمدينة ومحبة أهلها له بعد أن فتح الله تعالى عليه مكة وفرح بالفتح فرحًا عظيمًا، وكان حفيا بالكعبة المشرفة وبالمسجد الحرام، وعندئذ خاف الأنصار أن يقيم رسول الله ﷺ في مكة، ولا يرجع إلى أهل المدينة فيحرموا منه، فقال بعضهم لبعض: أما الرجل فأدركته رغبة في قريته، ورأفة بعشيرته. أترون رسول الله ﷺ إذ فتح الله عليه أرضه وبلده يقيم بها؟

فأوحى الله إليه بما جرى، فذهب رسول الله - صلوات الله وسلامه عليه - إليهم، فأخبرهم بما قالوا فأقرّوا، فطمأنهم قائلاً: «كلا، إني عبد الله ورسوله، هاجرت إلى الله وإليكم، فالمحيا محياكم، والممات مماتكم».

---

(١) رواه البخاري ومسلم.

فأقبلوا إليه يبكون ويقولون: «والله ما قلنا الذي قلنا إلا الضنّ بالله ورسوله». فقال رسول الله ﷺ: «إن الله ورسوله يصدقانكم ويعذرانكم».

هذا هو النموذج الأمثل في حب الوطن والتعلق به، والوفاء له والانتماء الصادق إلى العقيدة الحقّة التي تدعو إلى حبه وصدق الانتماء إليه، وهذا يجعل الناس ينافحون عنه وينتصرون له، ويضحون بالنفس والنفيس في سبيله، وتكون خيانته أو التفريط في حقه في الأمن والاستقرار من الخيانة العظمى التي تورد صاحبها موارد الهلاك.

إن حب الوطن يدعو كل مؤمن صادق الإيمان أن يكون وفيا لتراب الوطن الذي نشأ عليه، وأن يصونه من كل غائلة ومن كل ترويع أو اضطراب، فلا إيمان لمن لا أمانة له، ولا دين لمن لا عهد له.

إن سمات المؤمن أن يأمنه الناس على دمائهم وأموالهم وأعراضهم، بل يكون اسمه نداء النجدة للمكروبين والمفزعين، ويكون في جواره الأمن والطمأنينة.

وإن الإسلام حين يدعو إلى حب الأوطان ونشر الطمأنينة فيها والأمان، إنما يقرر المبدأ الإسلامي الذي يجب أن يسود في الأرض، وهو مبدأ الحرية والسلام والأمن والاستقرار، بل إن الإسلام قرر مبدأ الجوار ومبدأ الأمن لمن يجير إنسانًا ولو كان كافرًا، فلا تمتد يد بسوء إليه. فقد كانت السيدة أم هانئ بنت أبي طالب زوج هبيرة بن أبي وهب المخزومي قد أجارت بعض أقارب زوجها بعد الفتح، وهما: الحارث بن هشام وزهير بن أبي أمية المخزومي، فدخل عليها أخوها علي بن أبي طالب - رضي الله عنه - يريد أن يقتل الرجلين، فمنعته أم هانئ، ثم جاءت إلى رسول الله ﷺ، وهو في مكة، فلما رآها رسول الله ﷺ قال: «مرحبًا بك وأهلاً يا أم هانئ، ما جاء بك؟ فقالت: يا نبي الله، كنت أمّنت رجلين من أحمائي فأراد علي قتلهما. فقال رسول الله ﷺ: قد أجرنا من أجرت يا أم هانئ»(١).

فماذا كانت نتيجة هذا الجوار والأمان لهذين الرجلين؟

لقد أسلم الحارث وزهير وكانا عونًا للإسلام وأهله. وهكذا كانت ثمرة تعاليم

---

(١) رواه البخاري ومسلم.

الإسلام في دعوتها إلى الأمن والاطمئنان وحب الأوطان، ولله در القائل:

بلادي وإن جارت علي عزيزة وأهلي وإن ضنّوا علي كرام

ومعنى هذا أن الإنسان يعز عليه أن تشقى بلده، وحتى ولو فرض أنها جارت عليه أو ناله منها عسف أو تعب أو نصب، فإنها مع هذا عزيزة على الإنسان لا يرضى لها الضياع ولا الهوان. ومعلوم أن الوطن بمؤسساته وتراثه، وبحضارته وخيراته، لا تكون هذه الأشياء هي الجائرة، ولكن مراد الشاعر أن الذين فيها قد يجورون، فلا يصح أن يكون هذا مسوغًا للإنسان أن يكره الوطن برمته، ولا أن يكون حربًا عليه، بل تظل بلاده عزيزة عليه.

كما أن أهل الإنسان وعشيرته قد يبخلون عليه، فلا يكون بخلهم أو بخل أحدهم على الإنسان مسوغًا له أن يبغضهم، بل عليه أن ينظر إلى زوايا أخرى ناله من خلالها وبسببهم خير كثير، فقد تربى بخيرهم ونشأ في جوارهم. وإن ضنوا عليه في جانب، فقد كانوا كرامًا في جوانب أخرى.

ومن هنا تغنى الشعراء بحب الأوطان وبالتفاني في سبيل رفعتها وسؤددها:

وطني لو شُغلتُ بالخُلد عنه نازعتني إليه في الخُلد نفسي

إن الإنسان المؤمن يحب وطنه ويظل وفيا له، منافحًا عنه، وعونًا لأهله في السراء والضراء يعز عليه أن يشقى الوطن أو أحد أهله مهما كانت الأحوال:

دم الأهل والقربى وإن كان ظالما عزيز علينا أن نراه يسيلُ

إن الإنسان المؤمن محب لوطنه، وفيٌّ له متعاون مع أهله مُدافع عنهم، يعز عليه عنت الوطن أو شقاؤه أو ترويعه أو إرهاب أحد بنيه، بل يحب له الخير والسلام، والأمن والاستقرار، فالمؤمن من أمنه الناس على دمائهم وأموالهم وأعراضهم. روى الدينوري، عن الأصمعي قال: قالت الهند: «ثلاث خصال في ثلاثة أصناف من الحيوان: الإبل تَحنّ إلى أوطانها وإن كان عهدها بعيداً، والطير إلى وكره وإن كان موضعه مجدبًا، والإنسان إلى وطنه وإن كان غيره أكثر له نفعًا».

وعن الأصمعي قال: سمعت أعرابيا يقول: «إذا أردت أن تعرف الرجل، فانظر كيف تحننه إلى أوطانه، وتشوقه إلى إخوانه، وبكاؤه على ما مضى من زمانه».

الفصل الرابع

التضامن والنظام الدولي

- التضامن والنظام الدولي.
- واجب النظام الدولي.
- الدولة في الإسلام.
- الاعتصام بدين الله.
- التضامن في الجهاد.
- مكانة الأمة الإسلامية.
- ركائز التمكين في الأرض.
- خيرية الأمة.
- في مواجهة التحديات المعاصرة.
- السوق الإسلامية المشتركة.

التضامن والنظام الدولي

إن واجب الأمة الإسلامية أن تأخذ مكانها بين الأنظمة الدولية، بحيث تجتهد في إقامة تضامن إسلامي فيما بينها، تستطيع من خلاله أن تحقق ذاتيتها وهويتها، وأن تكون لها قوتها التي تستطيع أن تحقق بها مطالبها المشروعة وحقوقها الإنسانية التي يجب أن تتوافر لكل مجتمع إنساني.

أما أن تفقد الأمة الإسلامية بعض حقوقها في بعض الأوطان التي تقيم بها أقليات إسلامية، فلا يحصلون على حقوقهم، بل تتعرض بعض الأقليات وبعض البلاد المستضعفة إلى صنوف من ألوان التعذيب والاضطهاد، والتصفية والإبادة - فهذا ما لا ترضاه دولة من الدول، ولا يقبله إنسان هذا القرن الذي يفاخر بأنه عصر التقدم الحضاري و«التكنولوجيا» وعصر العلم الحديث.

إن العلم الحديث قد تقدم تقدمًا ملموسًا باكتشافاته واختراعاته وما قدمه للبشرية من سعادة مادية، وراحة حسية وجسمانية، أراحت البدن ووفرت الجهد، واختصرت المسافات.

ولكن العلم الذي تقدم هذا التقدم الحضاري والمادي هو نفسه الذي تدهور بالإنسانية وانحط بها حين اخترع القنبلة الذرية، ومواد الإبادة والنسف وأسلحة الدمار الشامل للنوع الإنساني ولكل مظاهر الحياة والجمال على ظهر الأرض.

بيد أن العلم الذي كان سلاحًا ذا حدّين، لم يكن هذا العيب منه وحده، وإنما من الإنسان الذي استغله استغلالا سيئًا، فبدل أن يسمو به نحو ما ينفع الناس في الأرض، استغله فيما يضرهم ويهلكهم. وهذا معناه أن الحضارة دون ترشيد وتسديد لا وزن لها ولا قيمة ولا نفع لها؛ لأنها ستحمل للبشرية الخراب والضياع، ولذا وجب أن تصحب الصحوة العلمية والحضارية نهضةٌ دينية وروحية، وترشيد إسلامي يوجه الصحوة نحو الحق والخير والسلام.

وإذا كانت بعض الدول الإسلامية تعاني من جراء هذه الانطلاقة المادية، وهذا اللون من التعسّف والجور، فإنه لا طريق إلى تحقيق أمانيها إلا بالتضامن الإسلامي الرشيد، الذي تتوحد من خلاله أمتنا الإسلامية، وتتعاون فيه على البر والتقوى، وتصوغ بتعاليم دينها الحنيف شخصيتها المستقلة التي تنهض بأمتها، وتكوّن قوة إسلامية عالمية تتصدّر القافلة وتحقق ما تصبو إليه.

ولا بد لأمتنا الإسلامية - حتى تستطيع أن تقيم بناء تضامن قوي يواجه تحديات العصر وأعداء الأمة - لا بد من قيام تضامنها على قاعدة الإيمان الحق، والعدل الشامل، والدعوة إلى الخير، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر كما قال الله تعالى: ﴿وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَأُوْلَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٤].

وحيث وجد المصلحون القائمون بأمر الأمة فلا يمكن أن تهلك؛ لأن الله تعالى يقول: ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ الْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ﴾ [هود: ١١٧]. فالعدل والإصلاح وتقوى الله تعالى من أهم أسس البقاء والنصر، والأمان والاستقرار.

أما الخروج على منهج الله، والعبث والترف، والفسوق والعصيان، فهي من أسباب الهلاك والدمار، قال الله تعالى: ﴿وَإِذَا أَرَدْنَا أَن نُّهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ فَدَمَّرْنَاهَا تَدْمِيراً﴾ [الإسراء: ١٦].

ولما كان الظلم من أخطر أسباب الضياع والهلاك، فقد حذر الله تعالى منه ومن الركون إلى الظالمين، فقال جلّت قدرته: ﴿وَلا تَرْكَنُوا إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا فَتَمَسَّكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ اللَّهِ مِنْ أَوْلِيَاءَ ثُمَّ لا تُنصَرُونَ﴾ [هود: ١١٣].

وقال سبحانه: ﴿وَكَذَلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرَىٰ وَهِيَ ظَالِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ﴾ [هود: ١٠٢].

فلا بد لقيام تضامن إسلامي حق أن يقوم على أساس العقيدة الصحيحة، والتعاون على البر والتقوى، وانتشار الإصلاح والعدالة، وتوحيد صفوف المسلمين في تضامن عملي إسلامي يجمع القوى الإسلامية ويوحد بينها؛ حتى تصبح قوة واحدة ذات ثقل كبير يقدر العالم مكانته، ويستجيب لندائه، ويحفظ له حقوقه كاملة غير منقوصة.

واجب النظام العالمي

إن واجب النظام العالمي حيال قضايا الأقليات الإسلامية ينبغي أن يكون أكثر جديّة وفاعلية، فإن التراخي وامتداد الزمن وطول المدة التي مضت، والتي عاشتها وتعيشها شعوب الأقليات الإسلامية - يترتب على ذلك هلاكٌ في كل يوم، وقتلٌ للأبرياء، واغتصابٌ للنساء، وزيادة القتلى والإبادة في كل يوم.

وهذه الجريمة النكراء، تمثل عاراً يلحق جميع الدول، وسُبّة في جبين التاريخ الذي يقال عن إنسان القرن العشرين فيه إنه الإنسان المتحضر المتقدم، ولكنها الحضارة الجوفاء، الخالية من المضمون، الفاقدةُ لجوهرها الإنساني وروحها الإيماني، العاجزةُ عن نصرة المظلومين!!

ولا بد أن يكون معلومًا لدى الجميع أن جراح أية دولة على خريطة العالم هي جراح في جسد البشرية كلها، وضعف لقوة سائر الدول، وتقهقرٌ لمسيرتها الحضارية؛ لأن الخطر في أية دولة من الدول، صغرت أم كبرت، بعُدت أم قربت، يهدد جسم الإنسانية كلها..

ومن هنا، نستشعر عالمية قضايا الأقليات الإسلامية وما يجب على النظام العالمي أن يقوم به من خطوات عملية جادة، وليس مجرد وعود تذروها رياح الاجتماعات أو التصريحات، بل عليه أن يتنبّه لهذا الخطر، وأن تقوم المنظمات الدولية بأداء واجبها، وأن تنهض الأمم المتحدة ومجلس الأمن وسائر المنظمات في العالم بدور إيجابي عملي لإيقاف هذه المآسي الدامية، والمهازل المخزية، التي تتفاقم يومًا بعد يوم، وكلما ازدادت ينتشر خطرُها في كل الأرض.

وقد قال الله تعالى في القرآن الكريم: ﴿وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ الْأَرْضُ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾ [البقرة: ٢٥١]، فنرى الآية الكريمة لم

تخص فئة دون أخرى ولا ملّة دون سواها، بل قالت: ﴿النَّاسَ﴾ وهي كلمة تشمل الجميع، ومعنى ﴿لَفَسَدَتِ الأَرْضُ﴾ أي انتشر فيها الفساد وعمّت الفوضى أرجاءها، وتفشّى الخطر في كل دولة وفي كل مكان.

إن واجب النظام العالمي اليوم أن يُدافع عن حقوق الإنسان، وإن واجب كل إنسان أن يقول: أين حقوق الإنسان في أبناء الأقليات الإسلامية؟! ففي كل يوم ضحايا وجرائم اغتصاب، وقتلٌ وإبادةٌ وتصفية، أين حقوق الإنسان؟!

إن إهدار حقوق الإنسان في وطن ما يغري بإهدارها في أي دولة أخرى بعد ذلك، وإن الدفاع عن حقوق الإنسان في موقع من المواقع هو دفاع عنها ـ مستقبلاً ـ في أية دولة أخرى، أو أية منطقة على خريطة هذا الوجودالإنساني، فكثير من الأقليات عضو في الأمم المتحدة، ولها سيادتها واستقلالها وكرامتها، ولها حقها في الحياة الحرة الآمنة، فإذا أهدر هذا الحق لدولة لها سيادتها فسيُفتح باب من الشر على الإنسانية لا يغلق بعد ذلك!!

إن واجب الدول جميعًا أن تنظر إلى عدالة القضية، وأن الأقليات الإسلامية لا ذنب لهم ولا جريرة، وإنما هم يؤمنون بالله. واحترام العقيدة الدينية أمر تقره جميع الأديان والشرائع والمواثيق الدولية. قال تعالى في القرآن الكريم: ﴿وَمَا نَقَمُوا مِنْهُمْ إِلاَّ أَن يُؤْمِنُوا بِاللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ﴾ [البروج: ٨].

وإن جميع الأديان لتدعو إلى التعايش السلمي، وإن جميع رسل الله قد نادوا بالحق والعدل وحرمة النفس الإنسانية وعدم العدوان عليها. وقد تركزت دعوة الإسلام في الرحمة، ولخّص القرآن الكريم رسالة خاتم النبيين ﷺ في قوله: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾ [الأنبياء: ١٠٧]. وكانت دعوة الإسلام للسلام عامة وشاملة، حيث يقول الله تعالى ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ادْخُلُوا فِي السِّلْمِ كَافَّةً﴾ [البقرة:٢٠٨]. ومن استجاب لهذه الدعوة دخل في السلم والأمان في كل المجالات.

إنه سلم مع النفس فتأمن ولا تتفزع، وسلم مع القلب فلا يحمل إلا الخير للناس جميعًا، وسلم مع العقل فلا يفكر فيما فيه شر أو دمار للبشرية من الحروب ونحوها. وقد قر ر القرآن الكريم التعايش السلمي بين جميع الأديان، حيث شرع

مع أهل الكتاب المعاملات والمعايشة والزواج، وقال تعالى: ﴿لا إِكْـراهَ فِي الدِّينِ﴾ [البقرة: ٢٥٦]، وقال الله تعالى سبحانه: ﴿لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ﴾ [الكافرون: ٦]، وقال الله سبحانه: ﴿لَسْتَ عَلَيْهِم بِمُسَيْطِرٍ﴾ [الغاشية: ٢٢]. وصان الإسلام حق التعايش السلمي بين أتباع جميع الأديان، وطبّقه خلفاء الإسلام عبر العصور، حتى إن عمر بن الخطاب ـ رضي الله عنه ـ اقتص من ابن والي مصر وهو عمرو بن العاص عندما ضرب ابنه ابنَ رجل قبطي كان قد سبقه، فأمر عمر بأخذ الحق للقبطي، وقال مقالته المشهورة: متى استعبدتم الناس وقد ولدتهم أمهاتهم أحراراً. ولم يُطق أن يرى رجلاً كبيراً طاعنًا في السن يقف على الأبواب يسأل الناس، وكان يهوديا، فلما عرف حاجته قال: ما أنصفناك إذ أكلنا شبيبتك وأهملناك عند الكبر. وأخذه إلى بيته فقدّم له العطاء، وجعل له راتبًا في بيت مال المسلمين.

وحسبنا دليلاً على تعايش الإسلام والمسلمين سلميا مع سائر الأديان أن أول وثيقة لحقوق الإنسان أبرمها خاتم الأنبياء والمرسلين سيدنا محمد ﷺ في المدينة بعد الهجرة ـ كانت تنص على التعايش السلمي بين المسلمين وبين سائر أهل الأديان الأخرى، حيث اشترط لهم واشترط عليهم أن يتعاونوا جميعًا على درء أي خطر، وعلى استتباب الأمن والاستقرار.

كل هذه الأدلة وغيرها كثير تحمل أوضح الدلائل على أن الإسلام يدعو إلى السلام والأمان، ولا يقبل العنف ولا الإرهاب. ويدعو إلى التعايش السلمي بين سائر الأديان الأخرى، ولا يقر التعصب الأعمى، ولا العنصرية البغيضة.

الدولة في الإسلام

للدولة في الإسلام وضع متميز وطابع خاص، فهي تجمع بين الدين والدنيا؛ لأن الإسلام دين ودولة، وليست الدولة في الإسلام ـ كما يتبادر إلى أذهان البعض ـ تقوم على شئون السياسة والحكم والقضاء والاجتماع وغير ذلك من الأمور دون أمور الدين من عقيدة وعبادة وأخلاق.

بل إن الدولة في الإسلام تقوم على رعاية أمور الدين ورعاية أمور الدنيا، فهي ترعى الله تعالى إيمانًا بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر والقدر خيره وشره، وتؤدي شعائر الدين صلاة وزكاة وصيامًا وحجًّا وغير ذلك من أمور العبادة والأخلاق.

كما تقوم الدولة على رعاية أمور الحياة الدنيا وما يحتاجه الناس فيها من بيع وشراء ووكالة وشركة وقضاء وأحوال شخصية وجهاد في سبيل الله دفاعًا عن الدين والأرض والعرض، وحرب وسلام، وعهود ومواثيق دولية، وما إلى ذلك من الأمور.

ففي ظل الدولة الإسلامية يبتغي الإنسان فيما آتاه الله الدار الآخرة ولا ينسى نصيبه من الدنيا، وفي ظلها يعمل لدنياه كأنه يعيش أبدًا، ويعمل لآخرته كأنه يموت غدًا.

وإذا نظرنا إلى أول نشأة الدولة الإسلامية في المدينة المنورة، وبعد الهجرة النبوية، لرأينا أن أول عمل قام به الرسول ﷺ لتأسيس الدولة هو: «بناء المسجد»، ليوثق صلة الخلق بخالقهم، وليؤسس الدولة على الإيمان والتقوى من أول يوم تقوم فيه.

وأما الأمر الثاني فهو: «المؤاخاة» التي آخى فيها بين المهاجرين والأنصار ليوثق صلة المجتمع ـ مهاجرين وأنصاراً ـ بعضهم ببعض.

وأما الأمر الثالث: فهو ما قام به من معاهدة عاهد فيها جميع الموجودين في المدينة من أهل الكتاب وغيرهم، حيث أبرم وثيقة صانت حقوق الإنسان المسلم وغير المسلم، وصانت حق الدولة في الحماية والدفاع عنها.

وعلى هذه الأسس الثلاثة قامت الدولة الإسلامية الأولى.

الأساس الأول: توثيق صلة الخلق بخالقهم وارتباط الدولة بربها بعبادة الصلاة، عن طريق أول بناء أقامه، وهو «المسجد». وكان المسجد في عهده مكانًا للعبادة والذكر والعلم والقضاء، واستقبال الوفود وإدارة شئون الدولة، وهذا أكبر دليل على أن الإسلام دين ودولة، وأنه لا يفصل بينهما.

وكان المسجد يمثل مركز الإشعاع الروحي والعلمي والديني والدنيوي، ومنارة الهدى والعرفان.

والأساس الثاني: توثيق صلة المسلمين ببعضهم البعض، عن طريق «المؤخاة» التي كانت تمثل أقوى رابطة تربط المؤمنين ببعضهم البعض، وكانوا بها يتوارثون، حتى نسخ هذا ونزل قوله تعالى: ﴿ **وَأُوْلُوا الأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ** ﴾ [**الأنفال**: ٧٥]، وكانوا في محبتهم لبعضهم وتآلفهم يؤثرن على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة.

والأساس الثالث: توثيق العلاقات بين المسلمين وغير المسلمين؛ لأن الإسلام هو دين التسامح والتعاطف، يدعو إلى حقوق الإنسان، مسلمًا كان أو غير مسلم. وقد تمثل هذا الأساس الثالث في تلك الوثيقة التي أبرمت بين المسلمين وغير المسلمين حفاظًا على حقوق الإنسان حتى تظل مصونة من أي عدوان خارجي أو داخلي، فالإسلام هو دين الحق والعدل والخير، ولتتكاتف كل القوى في حماية المدينة المنورة والدفاع عن الدولة الجديدة.

وكما عُني الإسلام بأسس الدولة بدءًا بتوثيق الصلة بالله ثم بالخلق ثم بغير المسلمين، فقد عُني أيضًا بأن يقوم ولي الأمر بالحق والعدل، فيكون حكمه بين الناس بالحق والعدل كما قال رب العزة سبحانه وتعالى: ﴿ **يَا دَاوُدُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الأَرْضِ فَاحْكُم بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ وَلا تَتَّبِعِ الْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ** ﴾ [**ص**: ٢٦].

وبيّن رب العزة سبحانه وتعالى أنه يأمر بالعدل والإحسان، فقال جل شأنه: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَى﴾ [النحل: ٩٠].

واستقامةً لأمر الدولة، عُني الإسلام بتحقيق العدل والحق من الحاكم، وعُني بمطالبة الرعية بالطاعة والنصيحة. أما فيما يتعلق بطاعة الرعية للحاكم أو لوليّ الأمر، فذلك في قول الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الأَمْرِ مِنكُمْ﴾ [النساء: ٥٩].

وقال ﷺ: «إن الله يرضى لكم ثلاثًا ويكره لكم ثلاثًا. فيرضى لكم أن تعبدوه ولا تشركوا به شيئًا، وأن تعتصموا بحبل الله جميعًا ولا تفرقوا، وأن تناصحوا من ولاّه الله أمركم. ويكره لكم قيل وقال وكثرة السؤال وإضاعة المال»[1].

وقال أحد السلف: لو كانت لي دعوة مستجابة لدعوت بها للحاكم؛ لأنه بصلاحه تصلح الأمة، وبفساده تفسد الأمة.

وأما فيما يتعلق بواجبات الحاكم وولاة الأمر، فقد أمر الله تعالى رسوله - صلوات الله وسلامه عليه - بقوله: ﴿وَاخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [الشعراء: ٢١٥].

وإذا كان هذا التوجيه الرباني صدر إلى أفضل خلق الله، وهو خاتم الأنبياء والمرسلين، فما بالنا بمن دونه من عامة الناس والحكام وولاة الأمر؟ لا شك في أنهم أكثر حاجة إلى مثل هذا التوجيه، وأحوج ما يكونون إليه، ولذا وضّح رسول الله - صلوات الله وسلامه عليه - أن الأمة جميعها مسئولة على حسب درجاتها، وأولهم مسئولية هو الإمام أو الحاكم، فقد قال رسول الله - صلوات الله وسلامه عليه: «كلكم راع وكلكم مسئول عن رعيته؛ فالإمام راع وهو مسئول عن رعيته، والرجل راع في أهله وهو مسئول عن رعيته، والمرأة راعية في بيت زوجها وهي مسئولة عن رعيتها، والخادم راع في مال سيده وهو مسئول عن رعيته، والرجل راع في مال أبيه وهو مسئول عن رعيته. فكلكم راع وكلكم مسئول عن رعيته»[2].

(١) رواه مسلم.
(٢) رواه أحمد والبخاري ومسلم.

ونلاحظ في هذا التوجيه النبوي الحكيم تحديداً للمسئولية في الدولة، من القمة إلى القاعدة، أو بعبارة أخرى، من المسئولية الأولى إلى آخر مسئول، فكل واحد له مسئوليته رسالته.

أما الأولى، فهي مسئولية الإمام أو الحاكم.

وأما الثانية، فهي مسئولية الأسرة؛ رجلا وامرأة وخادمًا وأبناء.

وبين هذه المسئوليات وبين هذين القطرين أو الحدّين، تندرج مسئوليات عديدة وكثيرة، إنها مسئولية الوزير والمدير ورئيس كل مؤسسة أو منظمة أو قطاع أو إدارة أو محافظة أو بلد أو قرية أو حيّ... وهكذا إلى الأسرة.

وابتدأ التوجيه النبوي بعموم المسئولية: «كلكم راع...»، وانتهى بعمومها أيضًا: «فكلكم راع وكلكم مسئول عن رعيته» تأكيداً لعموم المسئولية وردًا للعجُز على الصدر؛ لأهمية التضامن والتعاون بين الحاكم والمحكوم، وبين الرئيس والمرءوس، وبين جميع أفراد الدولة على اختلاف درجاتهم ومسئولياتهم ومراكزهم. فكل واحد له رسالته وواجبه وهمته التي يجب عليه أن ينهض بها.

وكما أن الحاكم أو الإمام أول مسئول، فأيضًا هو أول من يكرّم عند الله تعالى حين يقيم العدل بين رعيته، فهو أول السبعة الذين يظلّهم الله في ظله يوم لا ظل إلا ظله، فقد قال رسول الله ﷺ: «سبعة يظلهم الله في ظله يوم لا ظل إلا ظله: إمام عادل، وشاب نشأ في عبادة الله، ورجل قلبه معلق بالمسجد إذا خرج منه حتى يعود إليه، ورجلان تحابّا في الله فاجتمعا على ذلك وافترقا عليه، ورجل ذكر الله خاليًا ففاضت عيناه، ورجل دعته امرأة ذات منصب وجمال فقال: إني أخاف الله رب العالمين، ورجل تصدق بصدقة فأخفاها حتى لا تعلم شماله ما تنفق يمينه»(١).

ويحرص الإسلام على إقامة العدل في الدولة الإسلامية، فحيث انتشر العدل في كل جنباتها وفي جميع قطاعاتها ـ انتشر الأمان والاستقرار، فيوضح الرسول ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ جزاء العادلين ورفعة مكانتهم، فيقول: «إن المقسطين عند الله على منابر من نور؛ الذين يعدلون في حكمهم وأهليهم وما وَلُوا»(٢).

---

(١) رواه مالك والبخاري ومسلم وأحمد والترمذي.

(٢) رواه مسلم.

والتوجيه النبوي يدعو ويحث على العدل بين جميع أفراد الدولة، وينادي كل المسئولين وكل من وُلّي أمراً من الأمور، وفي كل موقع من المواقع: في الحكم وفي الأهل والأسرة، وفي كل ولاية كبرت أو صغرت.

وهكذا نرى أن الدولة في الإسلام تقوم على أساس الدين والدنيا، فليست مقصورة على أمور الدنيا فحسب، ولا على أمور الدين فقط، فإن الإسلام دين ودنيا، عقيدة وعبادة ومعاملة وأخلاق.

والمسئولية في الدولة لا تقتصر على ولي الأمر أو الحاكم، بل لكل إنسان مسئوليته، ومسئولية الإمام أو ولي الأمر أكبر وأعظم، ولذا يقول سيدنا عمر بن الخطاب - رضي الله عنه: «لو عثرت دابة في طريق العراق لوجدتني مسئولا عنها أمام الله؛ لِمَ لمْ أمهّد لها الطريق؟».

ومشاركة أفراد الأمة في المسئولية تضامن بين الجميع، وتضامن على إحقاق الحق ونشر العدل في الدولة، فحين شعر كل فرد أنه على قدر عمله مسئول، وأن ربه سيحاسبه عليه لا يلقي بالتبعة على غيره، بل يجتهد كل إنسان في الدولة لأداء واجبه على أكمل وجه، ولا يلقي بتبعاته على الحاكم الأعلى أو على الحكم فحسب، فكل إنسان محاسب على ما وُلّي عليه، كما قال رسول الله ﷺ: «إن الله سائل كل راع عما استرعاه، حفظ أم ضيّع»(١).

ولا يحل للمسئول أو الحاكم أو من استرعاه الله أمر جماعة، كبرت أو صغرت، أن يحتجب عنهم أو أن يغلق بابه دونهم، فإذا احتجب عن أصحاب الحاجات - احتجب عنه خالق الأرض والسموات، فقد قال صلوات الله وسلامه عليه: «من ولاه الله شيئًا من أمور المسلمين فاحتجب دون حاجتهم وخلتهم وفقرهم احتجب الله دون حاجته وخلته وفقره يوم القيامة»(٢).

---

(١) رواه ابن حبان

(٢) رواه أبو داود والترمذي.

الاعتصام بدين الله

لقد أمر القرآن الكريم المؤمنين أن يعتصموا بحبل الله جميعًا، فقال جل شأنه: ﴿ وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا ﴾ [آل عمران: ١٠٣].

وفي دعوة القرآن الكريم لوحدة الأمة توضيحٌ للأساس الذي تنهض عليه هذه الوحدة، وهو الدين والاعتصام به وبكتاب الله تعالى الذي هو سبب النجاة، ووضح القرآن هذا الأساس محذراً من التفرقة، لما لها من أخطار محدقة، وذكَّر سبحانه وتعالى هذه الأمة بما كان عليه الأوس والخزرج قديمًا، حيث استمرت الحروب بينهم مائة وعشرين سنة، حتى جاء الإسلام فأخمدها وجمعهم على الحق وألف بينهم.

وترسيخًا لأسس هذه الوحدة كلف الله الأمة بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر؛ انتصاراً للدين وإقامة لقوته ودفعًا لآفات الشر والفساد التي قد تثار حول حماه، أو ترتكب في الوطن الإسلامي، وضرب القرآن الكريم المثل بمن قبلنا حين اختلفوا بعد أن جاءتهم البينات فكان لهم الوعيد الشديد.

عن تلك الملامح كلها تحدث القرآن الكريم حديثًا شافيًا، فقال جل شأنه: ﴿ وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا وَكُنتُمْ عَلَىٰ شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ النَّارِ فَأَنقَذَكُم مِّنْهَا كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ (١٠٣) وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (١٠٤) وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا مِن بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَأُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾ [آل عمران: ١٠٣ - ١٠٥]، كما وضح الرسول - صلوات الله وسلامه عليه - أن الاعتصام بدين الله وكتابه مما يرضاه الله تعالى لهذه الأمة. عن أبي هريرة - رضي الله عنه - أنه قال: قال رسول الله ﷺ:

«إن الله يرضى لكم ثلاثًا ويكره لكم ثلاثًا. فيرضى لكم أن تعبدوه ولا تشركوا به شيئًا، وأن تعتصموا بحبل الله جميعًا ولا تفرقوا. ويكره لكم قيل وقال، وكثرة السؤال وإضاعة المال»(١).

وقد وضح رب العزة سبحانه في كتابه العزيز أن الدين واحد، وأن الأمة واحدة تتفق على الإيمان والتوحيد في العبادة، مشيرًا إلى حال بعض الأمم حين اختلفوا فتقطعوا قطعًا. قال تعالى: ﴿وَإِنَّ هَٰذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاتَّقُونِ ﴿٥٢﴾ فَتَقَطَّعُوا أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ زُبُرًا كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ ﴿٥٣﴾ فَذَرْهُمْ فِي غَمْرَتِهِمْ حَتَّىٰ حِينٍ﴾ [المؤمنون: ٥٢ - ٥٤]. وحذر الرسول ﷺ من الخروج على الطاعة ومفارقة الجماعة، حيث قال ﷺ: «من خرج على الطاعة وفارق الجماعة فمات، مات ميتة جاهلية»(٢).

كما أعلن ﷺ براءته ممن يخالف الجماعة ويفرق الصفوف ويضرب هذه الأمة: برها وفاجرها، ولا يفي لصاحب العهد بعهده، فقال - صلوات الله وسلامه عليه: «من خرج على أمتي يضرب برها وفاجرها، لا يتحاشى من مؤمنها ولا يفي بعهد ذي عهدها فليس مني ولست منه»(٣).

ويوضح القرآن الكريم نهاية من يشاقق الرسول وينفصل عن سبيل المؤمنين، فيقول: ﴿وَمَن يُشَاقِقِ الرَّسُولَ مِن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ الْهُدَىٰ وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصْلِهِ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيرًا﴾ [النساء: ١١٥].

وفي الحديث يقول الرسول ﷺ: «يد الله مع الجماعة، ومن شذّ شذّ في النار»(٤).

والناظر إلى جميع التعاليم الإسلامية يرى أنها تدعو إلى التأليف بين القلوب وجمع الصفوف، ففي جانب العقيدة: نؤمن بالله وحده لا شريك له، ونتجه جميعًا إليه معلنين في كل صلاة: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ [الفاتحة: ٥].

---

(١) رواه مسلم.
(٢) رواه مسلم
(٣) رواه مسلم.
(٤) رواه الترمذي.

إنها عقيدة التوحيد التي تجمعنا ولا تفرقنا، وفي ظلالها ننضوي تحت راية «لا إله إلا الله محمد رسول الله» فنؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر والقدر خيره وشره، حلوه ومره.

وفي جانب العبادات: نقيم الصلاة ونؤدي الزكاة ونصوم رمضان ونحج البيت إن استطعنا إليه سبيلا، وفي صلاتنا يزداد الأجر والثواب حين يؤدي الإنسان صلاته في جماعة فتفضل صلاة الفذ - أي الفرد - بخمس وعشرين درجة، وفي رواية للحديث «بسبع وعشرين درجة» مع أن الصلاة هي الصلاة وعدد الركعات لم يزد ولم يتغير.

وفي صلاة الجمعة اجتماع أسبوعي أكبر، وفي صلاة العيدين اجتماع على مستوى أكبر وأكبر.

وفي أداء الزكاة تكافل اجتماعي وتراحم وتواد بين الغني والفقير، وتقريب بين الناس وتوحيد بين المشاعر على الألفة والتعاون.

وفي الصيام غرس لمعاني الوحدة، ففي وقت واحد يمسك المسلمون عن المفطرات، وفي وقت واحد يفطرون، وفيه إحساس بالحرمان والجوع، وحث على البذل والإنفاق.

وفي الحج اجتماع كبير لأكبر عدد ممكن من مختلف الأقطار الإسلامية والبلاد، ومن شتى الألوان والأجناس.

وفي جانب الأخلاق، يدعو الرسول - صلوات الله وسلامه عليه - أمته أن تكون يدا واحدة في المودة والرحمة والعطف، فيقول ﷺ: «مثل المؤمنين في توادهم وتراحمهم وتعاطفهم مثل الجسد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى»(١).

ويعمق الإسلام مفهوم الوحدة بأقوى رباط ينبغي ألا ينساه أحد، ذلك هو رباط العقيدة التي يؤمنون فيها بالله ربًا، فربهم واحد، وأبوهم - وهو آدم - واحد. إنه رباط وثيق ينتظمون تحت لوائه مهما تباعدت الديار وتناءت الأقطار واختلفت اللغات والألوان، قال ﷺ: «يأيها الناس، ألا إن ربكم واحد، وإن أباكم واحد.

---

(١) رواه مسلم.

ألا لا فضل لعربي على أعجمي، ولا لعجمي على عربي، ولا لأحمر على أسود، ولا لأسود على أحمر - إلا بالتقوى»(١).

وينبغي أن ننبه إلى أن أعداء الأمة قد زرعوا في طريق وحدتها عقبات، منها العقبات الحسية والعوائق المادية، فقبل أن يخرجوا من بعض البلاد تركوا بعض المواقع لدى الحدود لتظل العلاقات متوترة، ولم يحسموها ابتغاء زرع الخلافات. كما نرى بعض العقبات المعنوية والفكرية، مثل تيارات الوجودية والشيوعية والماسونية والقاديانية والبهائية، إلى غير ذلك من التيارات المتصارعة التي تعمل على تفتيت وحدة الأمة.

بل إن بعض المستشرقين درس علوم الإسلام وتصيّد بعض الخلافات اليسيرة ليُضخم بها الخلاف وليحدث بها شروخًا بين فصائل الشباب المسلم، وكان على المفكرين والإسلاميين والدعاة والمصلحين أن يشخصوا الداء وأن يصفوا الدواء.

وإذا كان تشخيص الداء يتلخص في هذه التيارات وتبعية البعض لها، وانبهار الكثيرين من المسلمين بما كتبته أقلام هؤلاء الحاقدين على الإسلام، فإننا نرى أن الدواء يسير وواضح، إنه كما أشار رسول الله ﷺ «تركت فيكم ما إن تمسكتم به لن تضلوا بعدي أبدًا: كتاب الله وسنتي». فكتاب الله تعالى هو سر سعادتنا ووحدتنا وقوتنا إن تمسكنا به واعتصمنا بحبله، فلقد أدرك أحد زعماء الاستعمار هذه الحقيقة فقال: «لا قرار لنا ما دام المصحف بأيدي المسلمين، وما دام الأزهر في مصر، والكعبة في مكة المكرمة». وما ذلك إلا لأن هذه الوحدة أساسها الذي نبه إليه رب العزة هو «حبل الله المتين» ﴿وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا﴾ [آل عمران: ١٠٣]، ولأن الكعبة هي بيت الله الحرام، من دخله كان آمنًا، يتجه إليها المسلمون في كل صلاة، ولأن الأزهر الشريف في مصر قبلة العلم، يتجه إليه طلاب العلم والمعرفة ويبعث بعلمائه إلى كل الأرض، ورحم الله أمير الشعراء أحمد شوقي حين قال:

إن الذي جعل العتيق مثابةً ... جعل الكنانيَّ المبارك كوثرًا

---

(١) رواه أحمد.

فالتمسك بكتاب الله تعالى هو النجاة وسر النجاح والوحدة والقوة.

وهناك الدواء الوقائي، الذي يجب علينا أن نتنبه إليه، وهو اتقاء الفتن وصيانة الفرد والجماعة والأمم والشعوب من الوقوع في الفتن والانحراف في تياراتها، قال تعالى: ﴿يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ وَأَنَّهُ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ (٢٤) وَاتَّقُوا فِتْنَةً لَّا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنكُمْ خَاصَّةً وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ (٢٥) وَاذْكُرُوا إِذْ أَنتُمْ قَلِيلٌ مُّسْتَضْعَفُونَ فِي الْأَرْضِ تَخَافُونَ أَن يَتَخَطَّفَكُمُ النَّاسُ فَآوَاكُمْ وَأَيَّدَكُم بِنَصْرِهِ وَرَزَقَكُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [**الأنفال**: ٢٤ - ٢٦].

كما يجب ألا تكون اجتهادات العلماء واختلافاتهم اليسيرة مثار خلاف شديد أو سببًا لفرقة الأمة؛ لأنها رحمة الله بهذه الأمة، يأخذ أهل كل عصر ومصر ما يناسبهم ما دامت آراء أئمتنا لم تصادم نصا من كتاب الله ولا حديثًا من أحاديث رسول الله ﷺ.

ولقد أمرنا الله تعالى أن نقيم الدين وألا نتفرّق فيه، فقال سبحانه:

﴿شَرَعَ لَكُم مِّنَ الدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰ أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ كَبُرَ عَلَى الْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ اللَّهُ يَجْتَبِي إِلَيْهِ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَن يُنِيبُ﴾ [الشورى: ١٣] وإن من واجب أمتنا الإسلامية في هذه المرحلة الحاسمة التي تمر بها، والتي تعرضت فيها لتحديات من أعدائها باضطهاد الأقليات وبث التيارات المعادية ومحاولة نشر الفرقة في الصفوف. إن واجب أمتنا أن تسير في المسار الواضح الذي رسمه لها رسولها - صلوات الله وسلامه عليه - حين قال: «المؤمن للمؤمن كالبنيان، يشد بعضه بعضًا. ثم شبّك بين أصابعه»(١).

وواضح أن البنيان الذي يشد بعضه بعضًا متماسكٌ قوي، يثبت أمام العواصف ولا تؤثر فيه الهزات ولا التيارات؛ لأنه يقوى على ردها ويصون جماعته منها،

---

(١) رواه البخاري.

وكذلك الحال بالنسبة للأمة الإسلامية، فهي بوحدتها وتضامنها قوة كبرى لا تقف في مواجهتها قوة أخرى؛ لأنها بتأييد الله تعالى لها، وبفضل اعتصامها بحبل ربها وتكاتفها في سبيل الحق، تحقق النصر على أعدائها، وتحقق خيريتها على ظهر الأرض، وتنشر الأمن والاستقرار والخير والرخاء، وتقيم مبادئ الحق والعدل، وتصد تيارات الفساد والإلحاد، وترد موجات التحلل السافرة.

ويوم أن تتوحد بلاد العالم الإسلامي على نصرة دينها وتحقيق خيريتها ـ يوم أن ينصرها الله نصراً مؤزراً، ويمكّن لها في الأرض؛ لتقيم شريعة الله تعالى، مؤكدة صلتها بها، مقوية روابطها بالمجتمع، مدافعة عن دين ربّها، آمرة بالمعروف، وناهية عن المنكر. قال سبحانه: ﴿وَلَيَنصُرَنَّ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴿٤٠﴾ الَّذِينَ إِن مَّكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنكَرِ وَلِلَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ﴾ [الحج: ٤٠ ـ ٤١].

وقد أعطى أحد الحكماء أبناءه درسًا عمليا في قوة الوحدة وفي ضعف التفرق، فجاء قبل وفاته بقليل وقدم لهم حزمة من العصي وطالبهم بكسرها حال اجتماعها، فعجز الأبناء عن كسرها، ففكّ الحزمة وفرّق أعوادها وأعطاهم إياها فكسروها عودًا عودًا، ثم قال لهم:

كونوا جميعًا يا بَني إذا اعترى ... كرب ولا تتفرقوا أفرادا
تأبى الرماح إذا اجتمعن تكسُّرا ... وإذا افترقن تكسرت آحادا

وهكذا حال أمتنا إذا تفرقت، نال منها أعداؤها دولة دولة، وإذا تجمعت وتوحدت عجز أعداؤها عن أن ينالوا منها.

فواجب أمتنا أن تتوحد وأن تكون يدا واحدة في مواجهة التحديات التي تنال منها، والتي تحاول تصفية الأقليات الإسلامية وإبادتها. إنه لا خلاص للأمة من هذه الفتن ومن هجوم أعدائها ونيلهم منها إلا بتوحيد صفوفها؛ حتى تكون كالبنيان المرصوص يشد بعضه بعضًا.

التضامن في الجهاد

إن الإسلام يستوجب على المسلمين أن يُهرعوا لنجدة إخوانهم حين يستغيثون بهم؛ لأنهم كالجسد الواحد، إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الأعضاء بالسهر والحمى، ولأن من لم يهتم بأمر المسلمين فليس منهم.

ومما لا شك فيه أن الدفاع عن الحق ونصرة المظلوم من الواجبات الإسلامية التي أمر بها الإسلام، فلا يخذل المسلم أخاه.

والذي يدافع عن نفسه أو ماله إذا مات، مات شهيداً، وأما الظالم المعتدي فإذا مات كان في النار، فقد جاء رجل إلى رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله، أرأيت إن جاء رجل يريد أخذ مالي؟ قال: لا تعطه مالك. قال: أرأيت إن قاتلني؟ قال: قاتله. قال: أرأيت إن قتلني؟ قال: فأنت شهيد. قال: أرأيت إن قتلته؟ قال: هو في النار»[1].

وبهذا الحديث يتضح حكم من يقاتل من قاتله من الظالمين المغتصبين، وأن الذين يجاهدون في سبيل الله إذا استشهدوا كانوا في الجنة؛ لأن جهادهم لدفع الظلم والعدوان، ولإقرار الأمن والاستقرار، فهو جهاد عادل ومشروع، وليس كقتال الظالمين الذين يحرص كل منهم على العدوان على أخيه ويحرص على قتله، فأولئك في النار؛ لأن كلا منهم معتد. أما المدافعون عن الحق، فهم على حق.

وإن لمصر دوراً رياديا في المنطقة، وإن عليها واجبًا إسلاميا وقوميا تمليه عليها عقيدتها، فقد بوّأها الله تعالى مكانًا عليّا، وجعل جندها خير أجناد أهل الأرض، لتقوم برسالتيها الدينية والإنسانية في عالمها المحيط بها، ملبية نداء الواجب في

---

(١) رواه مسلم.

كل مكان، ومستجيبة لاستغاثة كل مستغيث، وناهضة لنصرة الأقليات الإسلامية في كل مكان.

ومن أجل هذا يقول الرسول ـ صلوات الله وسلامه عليه: «إنكم ستفتحون أرضًا يذكر فيها القيراط، فاستوصوا بأهلها خيرًا؛ فإن لهم ذمة ورحمًا»(١). وروى هذا الحديث مسلم برواية أخرى بلفظ: «إنكم ستفتحون مصر».

والمراد بالقيراط في الحديث: جزء من أجزاء الدينار والدرهم وغيرهما كان أهل مصر يكثرون من استعماله والتكلم به. وأما الذمة، فهي الحرمة والحق، وهي هنا بمعنى الذمام. وأما الرحم، فلكون هاجر أم إسماعيل منهم. وأما الصهر، فلكون مارية أم إبراهيم منهم.

وفي الرواية الثانية: «إذا فتحتموها فأحسنوا إلى أهلها، فإن لهم ذمة ورحمًا. أو قال: ذمة وصهرًا».

وعن عمر بن الخطاب ـ رضي الله عنه ـ قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إذا فتح الله عليكم مصر فاتخذوا فيها جندًا كثيفًا، فذلك الجند خير أجناد الأرض. فقال أبو بكر ـ رضي الله عنه: ولِمَ يا رسول الله؟ قال: لأنهم وأزواجهم في رباط إلى يوم القيامة»(٢).

وهذه عدة حقائق يبرزها هذا التوجيه النبوي الشريف يجب التنبيه إليها:

أولا: إن كنانة الله تعالى في أرضه ـ وهي مصر ـ لتضطلع برسالة كبرى، هي حماية دين الله في الأرض والدفاع عن الوطن الإسلامي، وقد شاء الله تعالى أن يكون الفتح الإسلامي لمصر نواة لأن تحافظ على هذه العقيدة، وأن تحمي تراثها وتصون أمنها، ومن أجل ذلك يذكرنا التاريخ أنه عندما تعرضت الأمة الإسلامية والتراث الإسلامي إلى الهجمة التترية الشرسة التي أطاحت بأمهات كتب الإسلام وأصوله ومراجعه، لم يكن هناك من قوة تحمي دين الله في الأرض وتتلقف التراث الإسلامي والوحي السماوي وتحافظ عليه، إلا مصر.

---

(١) رواه مسلم.
(٢) أخرجه ابن عبد الحكم.

فانتفض أزهرها الشريف بعد منتصف القرن السادس الهجري عملاقًا يتلقف هذا التراث الذي يمثل أشرف تراث في الوجود، لحمايته من الهجمة التترية الشرسة، وليصونه من المعتدين، ويبعث به إلى كل بلاد العالم ليعرفوا دينهم. ويرسل علماءه إلى أقطار الدنيا، ويستقبل أبناء المسلمين من كل أنحاء العالم ليعلمهم دينهم ويوضح لهم حقائق هذا الدين. ومن أجل ذلك، كما كانت الكعبة قبلة الصلاة في مكة المكرمة ـ كان الأزهر الشريف قبلة العلوم الإسلامية والعربية في مصر، وحقّ لأمير الشعراء أحمد شوقي ـ رحمه الله ـ أن يقول:

إن الذي جعل العتيق مثابةً ‏ ‏ ‏ ‏ جعل الكنانيَّ المبارك كوثراً

هذه هي الحقيقة الأولى التي نستنبطها من التوجيه النبوي الذي أنبأنا فيه رسول الله ﷺ بأن نتخذ من مصر جندًا كثيفًا؛ لأنه الذي سيحمي التراث والعقيدة، وقد شهد التاريخ بذلك.

ثانيا: إن التوجيه النبوي وضّح أنهم خير أجناد أهل الأرض، وهذا شرف عظيم لجندنا، وشهادة لهم بالإخلاص والبسالة والتضحية والفداء. وهذه الخيرية التي وصف بها جندنا وقواتنا المسلحة منحها الله تعالى إياهم لقيامهم على الأمن والحفاظ على الأمة، والدفاع عن الوطن والمرابطة في سبيل الله.

ثالثًا: إن السبب في تتويج جند مصر بهذه الخيرية وذلك الشرف أنهم وأهلهم في رباط إلى يوم القيامة.

وواضح كون الجند في رباط، جنودًا كانوا أو ضباطًا أو قادة. أما كون أهلهم في رباط، فيتضح ذلك بمشاركة أهلهم وذويهم لهم، حيث تعاني الزوجة التي ذهب زوجها للميدان، وكذا الأبناء وسائر الأهل، فما كان الله تعالى ليتركهم سُدى، بل إنه سبحانه وتعالى يتولّى حفظهم ورعايتهم ويأخذ أبناؤهم مثوبة المرابطين.

ومعنى كونهم في رباط أن يكونوا في حراسة الوطن وعلى أهبة الاستعداد في أي وقت لرد عدوان المعتدين عليه. وقد بشر الرسول ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ الذين يرابطون في سبيل الله بقوله في الحديث الشريف: عن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «عينان لا تمسهما النار: عين بكت من خشية الله، وعين باتت تحرس في سبيل الله تعالى»(١).

---

(١) رواه الترمذي.

وثمرة الرباط في سبيل الله حاصلة للمرابطين، سواء حدث جهاد وقتال أو لم يحدث، وسواء حدثت شهادة في سبيل الله أو لم تحدث.

وليعلم كل فرد في القوات المسلحة - عَلَت درجته ورتبته أو نزلت - أن منزلته العالية عند الله سبحانه وتعالى حاصلة لا شك فيها مادام مخلصًا لله في جهاده أو رباطه، وأن ما هو فيه من منزلة خير من الدنيا وما فيها، خير من البقاء في البيت والركون للراحة والمتعة ولذات الدنيا، وخير من الحياة والمنصب، وخير من المال، وخير من كل شيء. ولا يعرف هذه الخيرية، ولا يتذوق هذه المتعة الروحية إلا من جاهد ورابط.

عن سهل بن سعد الساعدي - رضي الله عنه - أن رسول الله ﷺ قال: «رباط يوم في سبيل الله خير من الدنيا وما عليها، والروحة يروحها العبد - في الجهاد - في سبيل الله والغدوة خير من الدنيا وما عليها»[1].

وبهذا ندرك قيمة الجهاد والرباط في سبيل الله والمنافحة عن الوطن الإسلامي برمّته، سواء كان حفاظًا على الأمن الداخلي أو الأمن الخارجي، أو على إخواننا من الأقليات في سائر أقطار الأرض. فإن الرسالة التي كلفنا بها الإسلام تستوجب علينا أن نهب لنجدة إخواننا، وأن نؤدي واجبنا تجاه العالم الذي يحيط بنا، فقد وصفنا الله تعالى بقوله: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ﴾ [آل عمران: ١١٠].

وقد وضح رسول الله ﷺ أن الرباط في سبيل الله تعالى لا تعادله عبادة من العبادات. عن أبي هريرة - رضي الله عنه - قال: «مر رجل من أصحاب رسول الله ﷺ بشعب فيه عُيَيْنَةٌ من ماء عذبة، فأعجبته فقال: لو اعتزلت الناس فأقمت في هذا الشعب، ولن أفعل حتى أستأذن رسول الله ﷺ. فذكر ذلك لرسول الله ﷺ. قال: لا تفعل، فإن مقام أحدكم في سبيل الله أفضل من صلاته في بيته سبعين عامًا. ألا تحبون أن يغفر الله لكم ويدخلكم الجنة؟! اغزوا في سبيل الله،

---

(١) رواه البخاري ومسلم.

من قاتل في سبيل الله فُواق ناقة وجبت له الجنة»[1]، ومعنى كلمة «فواق»: ما بين الحلبتين، والمراد ولو كان وقتًا قليلاً.

وهكذا نقف على منزلة المجاهدين والمرابطين في سبيل الله، وأنها لا تعادل منزلة أخرى؛ لأنهم يقدمون أغلى ما يملكون، وهي أرواحهم، فكان جزاؤهم أعظم الجزاء، وكانت منزلتهم أكرم منزلة.

وإذا علمنا هذا، فعلينا أن نوقن أيضًا بما ادخره الله تعالى للذين يلبون نداء الواجب حين يُدعون للتضحية والفداء، والجهاد في سبيل الله، والدفاع عن بلدهم أو أي بلد من بلاد الأمة، وأن الذي يستشهد يحس بالجنة ويشم رائحتها قبل أن تفيض روحه إلى بارئها، ولا يشعر بألم أو تعب، بل يشعر بلذة وسعادة لا تعادلهما سعادة في الوجود.

عن زيد بن ثابت ـ رضي الله عنه ـ قال: بعثني رسول الله ﷺ يوم أحد لطلب سعد بن الربيع ـ رضي الله عنه ـ وقال: إن رأيته فأقرئه مني السلام، وقل له: يقول لك رسول الله ﷺ: كيف تجدك؟ قال: فجعلت أطوف بين القتلى، فوجدته وهو في آخر رمق، وبه سبعون ضربة ما بين طعنة برمح وضربة بسيف ورمية بسهم، فقلت له: يا سعد، إن رسول الله يقرأ عليك السلام ويقول لك: أخبرني كيف تجدك؟ قال: على رسول الله السلام، وعليك السلام. قل له: يا رسول الله، أجدني أجد رائحة الجنة، وقل لقومي من الأنصار: لا عذر لكم عند الله أن يخلص إلى رسول الله ﷺ شيء يكرهه وفيكم عين تطرف.

فالمؤمنون الصادقون هم الذين يقبلون على الجهاد والرباط في سبيل الله تعالى، ويخفّون لأداء الواجب حيث يُنادون إليه، سواء كان دفاعًا عن بلدهم أو عن أي بلد إسلامي آخر في الوطن الإسلامي الكبير؛ لأن المسلمين يسعى بذمتهم أدناهم، وهم يدٌ على من سواهم، ولأن من لم يهتم بأمر المسلمين فليس منهم.

فالواجب علينا أن نقف مع إخواننا المسلمين في كل بلد إسلامي، ومع كل

---

(١) رواه الترمذي.

الأقليات الإسلامية وقوفًا بجانب الحق، ودفعًا للظلم عنهم، فالمسلمون كالجسد الواحد: إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الأعضاء بالسهر والحمى، وهم كالبنيان المرصوص يشد بعضه بعضًا، والمسلم أخو المسلم.

وواجب الإنسان المسلم تجاه أخيه ألا يخذله وألا يسلمه، بل عليه أن يخف لنجدته وشد أزره، فإذا نزلت به كارثة أو حل بأرضه أزمات أو إِحَنٌ أو خُصومات أو عدوان على أرضه وأهله من الأعداء، فعلى جميع المسلمين أن ينصروا إخوانهم، وأن يدافعوا عن النفس والمال والعرض، فلا يعيش الإنسان لنفسه فقط، بل يشعر أنه في عالم هو جزء منه، يحتاج إلى إخوانه وهم يحتاجون إليه، فإذا احتاجني اليوم أخي المسلم فغداً أحتاجه، وإذا ناداني الواجب في بلد آخر اليوم فغداً أناديه. وهكذا، فالناس يحتاج كل منهم للآخر، ومن لم يهتم بأمر المسلمين فليس منهم.

فاهتمامنا بإخواننا في العالم واجب إسلامي تُمليه علينا عقيدتنا التي نؤمن فيها بالله ربًا وبالإسلام دينًا وبمحمد نبيًا ورسولاً.

وعلينا أن نخلص في رسالتنا ودفاعنا عن الحق، وأن نتقي الله ربنا، وأن نحسن في أداء واجبنا؛ لأن الله تعالى يعين كل من اتقاه وأحسن عمله له: ﴿إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوا وَّالَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ﴾ [النحل: ١٢٨].

وليكن جندنا متمسكين بالتقوى؛ لأن النصر من عند الله يمنحه المتقين ﴿وَمَا النَّصْرُ إِلاَّ مِنْ عِندِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [الأنفال: ١٠].

مكانة الأمة الإسلامية

إن مكانة الأمة الإسلامية مرتبطة برسالتها، فحيث قامت برسالتها وأدت أمانتها تبوأت مكانتها كخير أمة أخرجت للناس.

إنها الأمة الوسط والأمة الخيرية التي ختم الله بها الأمم، وختم برسولها - صلوات الله وسلامه عليه - الأنبياء والمرسلين، وخصها الله تعالى بأكمل الشرائع وأوضح المناهج وأقومها لتقوم برسالتها وتؤدي مهمتها العظيمة في الحياة.

ولقد أكمل الله لها الدين، وأتم النعمة، ورضي لها الإسلام دينًا، وحقق العدل الإلهي على أكمل وجه. قال الله تعالى: ﴿ الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلامَ دِينًا ﴾ [المائدة: ٣].

ويربط الله تعالى هذه الأمة برباط وثيق، هذا الرباط أو هذه القاعدة، تجعل من الأمة خير الأمم، وهذه الخيرية يترتب عليها أمر خطير، هو أن يكونوا يوم القيامة شهداء على الأمم. والرباط الوثيق أو القاعدة العظمى قبلة إبراهيم - عليه السلام - ولطالما كان رسول الله - صلوات الله وسلامه عليه - يكثر من الدعاء، مبتهلا لله وراجيا ربه سبحانه وتعالى أن يوجهه إلى الكعبة التي هي قبلة إبراهيم عليه السلام.

وقد أجاب الله تعالى دعاء رسول الله ﷺ، وأمره بالتوجه إليها. قال الله تعالى: ﴿ سَيَقُولُ السُّفَهَاءُ مِنَ النَّاسِ مَا وَلاَّهُمْ عَن قِبْلَتِهِمُ الَّتِي كَانُوا عَلَيْهَا قُل لِّلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ يَهْدِي مَن يَشَاءُ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ (١٤٢) وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا وَمَا جَعَلْنَا الْقِبْلَةَ الَّتِي كُنتَ عَلَيْهَا إِلاَّ لِنَعْلَمَ مَن يَتَّبِعُ الرَّسُولَ مِمَّن يَنقَلِبُ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ ﴾ [البقرة: ١٤٢ - ١٤٣].

وإذا كانت قبلة هذه الأمة هي قبلة إبراهيم - عليه السلام - وإذا كانت رابطة هذه

الأمة رابطة لها عراقتها ومكانتها الدينية، فإليها يتجه المسلمون في صلاتهم، وإلى رحابها يأتون من كل فج عميق. فهي ملتقى اتجاههم، في صلاتهم وعبادتهم التي يتجهون بها إلى الله وحده لا شريك له، ويدينون بدين قيم، هو ملة إبراهيم.

قال الله تعالى مخاطبًا رسول الله ﷺ: ﴿قُلْ إِنَّنِي هَدَانِي رَبِّي إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ دِينًا قِيَمًا مِّلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ (١٦١) قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (١٦٢) لَا شَرِيكَ لَهُ وَبِذَٰلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ﴾ [الأنعام: ١٦١ - ١٦٣].

خصوصيتها لمكانتها

وهكذا ربط الله تعالى الأمة بقبلة إبراهيم - عليه السلام - واختارها لهم لتكون خير الأمم، وجعلها خير الأمم لتكون شهيدة يوم القيامة على الأمم ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا...﴾، الوسط - الخيار. فهي خيار الأمم، فماذا يتناسب مع كونها وسطًا؟ لقد خصها رب العزة سبحانه وتعالى بأكمل الشرائع وأوضح الهدايات، وكلفها بالجهاد الحق في سبيل الله. وذلك في مقابل هذه المكانة.

قال سبحانه: ﴿وَجَاهِدُوا فِي اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ هُوَ اجْتَبَاكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ مِّلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِن قَبْلُ وَفِي هَٰذَا لِيَكُونَ الرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَاعْتَصِمُوا بِاللَّهِ هُوَ مَوْلَاكُمْ فَنِعْمَ الْمَوْلَىٰ وَنِعْمَ النَّصِيرُ﴾ [الحج: ٧٨].

لقد اختار الله هذه الأمة واصطفاها على سائر الأمم، وخصها بأشرف الرسل - صلوات الله وسلامه عليه - وأعظم الشرع، ولم يكلفهم ما لا يطيقون، بل خفف عليهم في سائر العبادات؛ من قصر للصلاة وجمع، وأداء لها من جلوس للمريض الذي لا يستطيع القيام، ومن الإفطار في رمضان لمن كان مريضًا لا يستطيع الصوم... وهكذا.

وقال - صلوات الله وسلامه عليه -: «بُعثتُ بالحنفية السمحة». وقال لمعاذ وأبي

موسى حين بعثهما إلى اليمن: «بشّرا ولا تنفّرا. ويسرا ولا تعسرا» فليس في الإسلام من حرج ولا ضيق ولا مشقة ﴿يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ﴾ [البقرة: ١٨٥]. ويأمرهم بأن يلزموا ملة إبراهيم. إنها ملة التوحيد الخالص، وعقيدة التوحيد الحق، التي تجمع الناس تحت كلمة: لا إله إلا الله.

الشكر في مقابل النعمة

وفي مقابل هذه النعمة الجليلة، فإن واجب الأمة أن تكون شاكرة لربها برسالتها، مجاهدة في الله حق جهاده، قائمة بما أوجبه عليها من صلاة وزكاة وغير ذلك من حقوق الله وحقوق العباد ومن العبادات البدنية والعبادات المالية، ﴿فَأَقِيمُوا الصَّلاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ﴾ وذلك في مقابل نعمه التي لا تحصى، وأجلها نعمة الإسلام الذي ارتضاه لنا دينًا قيمًا، فيه الخير واليسر، ولا حرج فيه ولا مشقة.

وواجب الأمة أن تعتصم بالله وأن تستعين به وحده لا شريك له، فمنه التأييد وبه تكون القوة، فهو وحده الحافظ والناصر ﴿وَاعْتَصِمُوا بِاللَّهِ هُوَ مَوْلاكُمْ فَنِعْمَ الْمَوْلَىٰ وَنِعْمَ النَّصِيرُ﴾.

وإذا كانت مكانة الأمة بهذه المثابة، فإن المحافظة على هذه المكانة لا تتأتى إلا بالمحافظة على علاقتها مع الله سبحانه وتعالى، وتأكيد الصلة به، والسير على هدى العقيدة الخالصة والإيمان الصحيح، والعمل الجاد والعبادة الصادقة، واعتصامها ووحدتها بالله، وأن يكون ارتباطها بالله تعالى وحده، فقد وجهها إلى القيام بطاعته وإلى الاعتصام به.

فأما القيام بطاعته، فقال فيه: ﴿فَأَقِيمُوا الصَّلاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ﴾. وأما الاعتصام به، فقال فيه: ﴿وَاعْتَصِمُوا بِاللَّهِ هُوَ مَوْلاكُمْ﴾. والنتيجة المترتبة على ذلك هي أنه يتولاهم وينصرهم. ﴿فنعم المولى ونعم النصير﴾.

هذا هو الطريق الذي يرسمه القرآن الكريم لمكانة الأمة الإسلامية. إنه في غاية الوضوح وغاية اليسر، عبادة وعملاً، وإيمانًا وجهادًا. إنها وحدة قائمة بالله، وحدة أساسها الإسلام، لا اعتصام بشرق أو غرب، لا اعتصام بحول أو طول،

وإنما ﴿وَاعْتَصِمُوا بِاللَّهِ هُوَ مَوْلاكُمْ﴾ فكيف ندع الاعتصام بالله وهو مولانا وخالقنا ومدبر أمورنا، وهو نعم المولى ونعم النصير، كيف ندع الاعتصام به إلى الاعتصام بغيره؟!

إن الاعتصام بالله يعني أن نرتبط برابطة العقيدة التي تسري في الروح والوجدان سريان الدم في العروق. إن الاعتصام بالله تطبيق لشريعته وتنفيذ لأحكام الإسلام، وتوحيد الاتجاه إليه. فأصول هذا الدين تدعو إلى هذا الاعتصام، فالصلاة؛ نتجه فيها إلى قبلة واحدة وندعو إلهًا واحدًا. والصوم؛ نمسك فيه عن المفطرات في وقت واحد ويحل لنا الطعام في وقت واحد، والحج؛ نظهر فيه بزيّ واحد ونلبي إلهًا واحدًا. وهكذا، كل العبادات تدعو إلى الاعتصام بالله. إن أمة اجتباها الله وجعلها أمة وسطًا، وبوّأها منزلة تكون فيها شهيدة على الأمم - لا يليق بها أن تدع تعاليم السماء، ولا أن تتخلى عن الدستور السماوي الذي كفل لها العدل والأمن والحق والخير، ولا يليق بها أن تتفرق أو تتناحر وتتطاحن، وإنما يُملي عليها دينها وتقتضيها عقيدتها أن تعتصم بالله، وأن تقف يدًا واحدة في وجه أعدائها الذين يمكرون بها ويتربصون بها الدوائر، ويوم أن تعتصم بالله آخذة دورها في الحياة، ومؤدية رسالتها المنوطة بها - يوم أن يمنّ الله عليها بالنصر والفتح المبين، وقد وعد سبحانه - ووعده الحق - بنصر المؤمنين، فقال سبحانه: ﴿وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [الروم: ٤٧].

من ركائز التمكين في الأرض

إن رسالة الإنسان على ظهر هذا الكوكب ليست شيئًا هينًا ولا يسيرًا، ولكنها استخلاف في الحياة وقيام بمهام لها أصول ثابتة، ومحكومة بحكم إلهي عادل. ولا يستخلف في الأرض إلا من كان صادق الإيمان مخلصًا في عقيدته، جادًا في عمل الصالحات، على هدًى ونور كما قال الله تعالى: ﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ﴾ [النور: ٥٥].

ويوضح القرآن الكريم ركائز التمكين في الأرض في قوله سبحانه وتعالى: ﴿الَّذِينَ إِن مَّكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنكَرِ وَلِلَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ﴾ [الحج: ٤١].

«قال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا أبو الربيع الزهراني، حدثنا حماد بن زيد، عن أيوب وهشام، وعن محمد، قال: قال عثمان بن عفان: فينا نزلت ﴿الَّذِينَ إِن مَّكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنكَرِ﴾، فأخرجنا من ديارنا بغير حق إلا أن قلنا «ربنا الله»، ثم مكنا في الأرض، فأقمنا الصلاة وآتينا الزكاة وأمرنا بالمعروف ونهينا عن المنكر، ولله عاقبة الأمور، فهي لي ولأصحابي. وقال أبو العالية: هم أصحاب محمد ﷺ. وقال عمر بن عبد العزيز: ألا إنها ليست على الوالي وحده، ولكنها على الوالي والمولى عليه. ألا أنبئكم بما لكم على الوالي من ذلكم، وبما للوالي عليكم منه؟ إن لكم على الوالي من ذلكم أن يؤاخذكم بحقوق الله عليكم، وأن يأخذ لبعضكم من بعض، وأن يهديكم للتي هي أقوم، ما استطاع. وإن عليكم من ذلك الطاعة غير المبزوزة ولا المستكره بها ولا المخالف سرها علانيتها»[1].

---

(١) تفسير ابن كثير.

إن ركائز هذا التمكين إنما تكون من توثيق الصلة بين الخلق وخالقهم، وإقامة الصلة الدائمة بينهم وبين الله تبارك وتعالى، في كل يوم خمس مرات، والتي هي عماد الدين، مَن أقامها فقد أقام الدين، ومن هدمها فقد هدم الدين. وبالصلاة تنتفي الفحشاء ويختفي المنكر عن الإنسان، ويصبح نقي السلوك والسيرة.

إن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر، فإذا ما اختفت المعصية من المجتمع وتعالت نداءات الحق ودوّت كلمة التوحيد بين أرجاء البلاد، وأصبحت أصوات المآذن متلاقية على كلمة الحق «الله أكبر» وتجمع الناس حول هذا الشعار، فلا شك في أنهم بهذا يتوحّدون ويتجمعون على الخير، ويصبحون يدا واحدة لا ترهب عدواً ولا تخشى بأسًا، ولا تخاف في الحق لومة لائم.

ثم من ركائز هذا التمكين إيتاء الزكاة، وفي إيتائها تطهير للمال من حق الفقير الذي وجب فيه، وتطهير لنفس الغني من آفة الشُّحّ ورذيلة البخل، وتطهير لنفس الفقير من الحقد والكراهية، ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا﴾ [التوبة: ١٠٣].

وحقيقة كل من الصلاة والزكاة أنها عنوان لصلة العبد بربه، في القيام بما وجب على المسلم من الفرائض وعنوان على صلته بالمجتمع الإسلامي، تكافلاً وتضامنًا.

وفي هاتين الفريضتين عنوان للطاعة لله سبحانه وتعالى، والإصلاح في المجتمع، والبعد عن الرذائل، ومحاولة إزاحة كل فساد فيه، وربط الإنسان بربه في صلة دائمة مستمرة، لا تنقطع في كل يوم وليلة، وصلة دائمة مستمرة لا تنقطع كلما أفاء الله على عباده من خير ورزق.

ثم من ركائز التمكين أيضًا الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر. قال تعالى: ﴿وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (١٠٤) وَلا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَأُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ (١٠٥) يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ فَأَمَّا الَّذِينَ اسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ أَكَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَانِكُمْ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ (١٠٦) وَأَمَّا الَّذِينَ ابْيَضَّتْ وُجُوهُهُمْ فَفِي رَحْمَةِ اللَّهِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٤ ـ ١٠٧].

ويبرز القرآن الكريم حقيقة هذه الأمة ومكانتها في الإسلام، كخير أمة أخرجت للناس، وأنها لم تؤت هذه الخيرية إلا لتمسكها بدينها، ولحملها راية التوحيد في الأرض، وبقية الإيمان فيها دعوة بالخير والحق، وتثبيتًا لأصول الإيمان الصحيح بالله الواحد الأحد أمرًا بالمعروف ونهيًا عن المنكر، وإقامة للدين، وحراسة لحدوده، وذودًا عن حماه. قال سبحانه: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ﴾ [آل عمران: ١١٠].

وقد توعد الله تعالى الذين يتخلون عن إقامة دينه، ولا يأمرون بالمعروف، ولا ينهون عن المنكر، فقال سبحانه: ﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَىٰ ﴿١٢٤﴾ قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمَىٰ وَقَدْ كُنتُ بَصِيرًا ﴿١٢٥﴾ قَالَ كَذَٰلِكَ أَتَتْكَ آيَاتُنَا فَنَسِيتَهَا وَكَذَٰلِكَ الْيَوْمَ تُنسَىٰ﴾ [طه: ١٢٤ ـ ١٢٦].

وعن عبد الله بن مسعود ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسول الله ﷺ: «إن أول ما دخل النقص على بني إسرائيل أنه كان الرجل يلقى الرجل فيقول: ياهذا، اتق الله ودع ما تصنع، فإنه لا يحل لك. ثم يلقاه من الغد وهو على حاله فلا يمنعه ذلك أن يكون أكيله وشريبه وقعيده. فلما فعلوا ذلك ضرب الله قلوب بعضهم ببعض. ثم قال: ﴿لُعِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَىٰ لِسَانِ دَاوُودَ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوا وَّكَانُوا يَعْتَدُونَ ﴿٧٨﴾ كَانُوا لَا يَتَنَاهَوْنَ عَن مُّنكَرٍ فَعَلُوهُ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ ﴿٧٩﴾ تَرَىٰ كَثِيرًا مِّنْهُمْ يَتَوَلَّوْنَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَبِئْسَ مَا قَدَّمَتْ لَهُمْ أَنفُسُهُمْ أَن سَخِطَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَفِي الْعَذَابِ هُمْ خَالِدُونَ ﴿٨٠﴾ وَلَوْ كَانُوا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالنَّبِيِّ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مَا اتَّخَذُوهُمْ أَوْلِيَاءَ وَلَٰكِنَّ كَثِيرًا مِّنْهُمْ فَاسِقُونَ﴾ [المائدة: ٧٨ ـ ٨١]، ثم قال: كلا، والله لتأمُرُنّ بالمعروف ولتنهَوُنّ عن المنكر ولتأخُذنّ على يد الظالم ولتأطرنّهُ على الحق أطرًا ـ أي لتعطفنه على الحق ـ ولتقصرنه على الحق قصرًا، أو ليضربن الله بقلوب بعضكم على بعض، ثم ليلعنكم كما لعنهم»(١).

وقد بين الله تعالى أن ظهور الفساد واستشراءه وانقطاع الخير عن العباد بسبب ما اكتسبته أيديهم، قال سبحانه: ﴿ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ﴾ [الروم: ٤١].

---

(١) رواه أبو داود والترمذي.

فما يحدث من القحط وقلة الزرع والضرع والنبات والخيرات، وشدة الحاجة بين الناس فإنما هو بسبب ما اقترفوه من المعاصي. وفي ترك الشر والمعصية، ومقاومة الأشرار والأخذ على أيدي العصاة - إصلاح للمجتمع. ومع الطاعة والإقبال على الله؛ زيادة في الخير والرزق.

وما كان سببًا في ترك المعاصي، وكفّ الناس عن المعاصي وكف الناس عن الجرائم والشرور - كإقامة الحدود وتطبيق الشريعة الإسلامية وتنفيذ أحكام الدين - هو في الحقيقة خيرٌ يعود على البلاد والعباد. يقول الرسول ﷺ: «الحدٌّ يقام في الأرض أحب إلى أهلها من أن يمطروا أربعين صباحًا».

وهذا الذي يحدث، ما الذي يترتب عليه؟

يقول الله تعالى: ﴿لِيُذِيقَهُم بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ [الروم: ٤١]. فهو جزاء على ما صنعوا وما ارتكبوا، وهو ابتلاء من الله تعالى لهم، إنه ابتلاء في الأموال والأنفس والثمرات لعلهم يهتدون ويرجعون عن المعاصي.

وقد وجه القرآن الكريم أنظار الناس إلى السير في الأرض والنظر فيها بعين الاعتبار، ليعرفوا ماذا حدث للذين من قبلهم ﴿قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلُ كَانَ أَكْثَرُهُم مُّشْرِكِينَ﴾ [الروم: ٤٢]، وهذا الذي حل بهم من هلاك وابتلاء؛ حتى كانت بيوتهم خاوية، كان ذلك بسبب تكذيبهم وكفرهم بالنعم التي أنعم الله بها عليهم.

وإذا كان ربط الصلة بالله على أساس متين، وربط الصلة بالمجتمع، والدعوة إلى الخير من ركائز التمكين في الأرض - فإن هناك أسسًا أخرى لا تقوم سعادة الفرد أو الجماعة، ولا الذكر ولا الأنثى، ولا الأسرة أو الهيئة أو المجتمع أو الأمة... إلا على أساسها.

وقد حددها القرآن الكريم وجعل منها نظامًا إلهيًا يربط به سعادة الفرد والجماعة. قال سبحانه وتعالى: ﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [النحل: ٩٧].

وهكذا نرى أن الله تعالى يوفر لعباده أسباب الحياة الطيبة، وهي السعادة والاستقرار والأمن والتمكين... هذا في الدنيا. وأما في الآخرة، فإن لهم جزاءً

وافراً على ما كانوا عليه من إيمان واستقامة، وهذا الجزاء ليس بمقدار ما كانوا يعملون ولا أوسط ما كانوا يعملون ولا أدنى ما كانوا يعملون، وإنما هو جزاء ﴿بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾.

ومن أهم أسباب السعادة والتمكين، ما تحدث عنه القرآن في قول الله تعالى: ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَاتَّقَىٰ ۝٥ وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَىٰ ۝٦ فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَىٰ ۝٧ وَأَمَّا مَنْ بَخِلَ وَاسْتَغْنَىٰ ۝٨ وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَىٰ ۝٩ فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْعُسْرَىٰ ۝١٠ وَمَا يُغْنِي عَنْهُ مَالُهُ إِذَا تَرَدَّىٰ﴾ [الليل: ٥ ـ ١١].

وهكذا نرى كيف سعى الناس في الحياة، فمنهم من يتجه إلى ما فيه الخير، فيزداد بالخير والحسنى. ومنهم من يتجه بغير الخير، فيتردى في العسرى. ويؤكد القرآن الكريم الوعد الحق بالحياة الطيبة وبالسعادة والتمكين، وبالرغد في العيش لمن استقاموا على الجادة وساروا على هدى الله ونوره، بأن الله سبحانه وتعالى يزيل عنهم كل أزمة أو ضائقة، ويدفع عنهم كل بلاء وكارثة، ويأتيهم بالرزق من كل مكان، وينزل عليهم بركات من السماء والأرض. قال سبحانه: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَىٰ آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ﴾ [الأعراف: ٩٦]. وقال تعالى: ﴿وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَل لَّهُ مَخْرَجًا ۝٢ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ﴾ [الطلاق: ٢ ـ ٣].

وتكشف السنة الشريفة مع كتاب الله تعالى عن أسباب الكوارث والضائقة المالية أو الضائقة النفسية، وما يصيب الإنسان، وأن لذلك سببًا مباشراً، وهو عصيان الله وعدم الاستقامة على منهج الحق، وذلك بارتكاب الذنوب. يقول الرسول ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ «والذي نفس محمد بيده، ما من خدش عود ولا عثرة قدم ولا اختلاج عرق إلا بذنب، وما يعفو الله عنه أكثر»(١). ويقول الله سبحانه وتعالى: ﴿وَمَا أَصَابَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُو عَن كَثِيرٍ﴾ [الشورى: ٣٠].

وتتفاوت الكوارث تبعًا للذنوب وكثرتها، وقد أشار القرآن الكريم إلى بعض الحالات التي ينتشر فيها الذنب ويتكرر حتى تحيط الخطيئة بالقلب عندما تسلم كل معصية إلى أخرى. قال تعالى: ﴿بَلَىٰ مَن كَسَبَ سَيِّئَةً وَأَحَاطَتْ بِهِ خَطِيئَتُهُ فَأُولَٰئِكَ

---

(١) رواه السيوطي في الدر المنثور.

أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ [البقرة: ٨١]. ويقول الله تعالى: ﴿كَلاَّ بَلْ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ [المطففين: ١٤].

وقد ضرب الله الأمثلة في القرآن الكريم بتلك الأمم التي ظلمت وكفرت، فذهبت وزالت، وأصبح أثرًا بعد عين، وذلك بما ظلموا وبما جحدوا وكفروا وظلموا أنفسهم بأيديهم، وما ربك بظلام للعبيد. فنبه كل الظالمين بهذه العبرة ليكون لهم في ذلك ما يوضح لهم حقيقة الأمر في الحياة، وإن الله لا يغفل عما يعمل الظالمون.

قال تعالى: ﴿وَلا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ غَافِلاً عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ الأَبْصَارُ (٤٢) مُهْطِعِينَ مُقْنِعِي رُءُوسِهِمْ لا يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ وَأَفْئِدَتُهُمْ هَوَاءٌ (٤٣) وَأَنذِرِ النَّاسَ يَوْمَ يَأْتِيهِمُ الْعَذَابُ فَيَقُولُ الَّذِينَ ظَلَمُوا رَبَّنَا أَخِّرْنَا إِلَىٰ أَجَلٍ قَرِيبٍ نُّجِبْ دَعْوَتَكَ وَنَتَّبِعِ الرُّسُلَ أَوَ لَمْ تَكُونُوا أَقْسَمْتُم مِّن قَبْلُ مَا لَكُم مِّن زَوَالٍ (٤٤) وَسَكَنتُمْ فِي مَسَاكِنِ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ وَتَبَيَّنَ لَكُمْ كَيْفَ فَعَلْنَا بِهِمْ وَضَرَبْنَا لَكُمُ الأَمْثَالَ﴾ [إبراهيم: ٤٢-٤٣].

وبالجملة، فإن القرآن الكريم يركز كل أسباب السعادة والتمكين والنصر والاستقرار في الحكم بما أنزل الله. يقول سبحانه: ﴿فَلا وَرَبِّكَ لا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾ [النساء: ٦٥].

خيرية هذه الأمة

للأمة الإسلامية مكانتها ومنزلتها، فهي خير أمة أخرجت للناس، ورسالتها في هذه الحياة رسالة ضخمة وشاقة، ولهذا خوّلت لها أن تتبوأ هذه المكانة.

إنها الأمة الخاتمة ذات الدعوة السماوية الخاتمة التي أرسل بها خاتم الرسل - صلوات الله وسلامه عليه.

وإنها الأمة التي ستحمل الإيمان على ظهر الأرض، أمرًا بالمعروف ونهيًا عن المنكر، وإيمانًا بالله، كما قال الله جل شأنه: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ﴾ [آل عمران: ١١٠].

وكما جعل الله تعالى «خيرية» هذه الأمة ترتكز على الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والإيمان بالله، فإنه كذلك رتب فلاح أهلها على هذه الأمور، كما قال سبحانه: ﴿وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٤].

وفي قوله تعالى: ﴿وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ﴾ إشارة إلى الوحدة؛ لأن الأمة هي التي اتحدت كلمتها وهدفها وغايتها وصفّها.

وتقابل الوحدة الفرقةُ والاختلاف، وللفرقة والاختلاف أخطر النتائج في تاريخ الأمم والشعوب، فكم قضت على أمم، وكم أذهبت ريح أناس.

ولهذا فإن القرآن الكريم - إذ يدعو لجمع الكلمة، وتوحيد الصف، ويخاطب الجماعة المؤمنة لتكون من بينها أمة - فإنه في الوقت نفسه يحذرهم من الفرقة والاختلاف، كما تفرق غيرهم واختلفوا، فكانت عاقبتهم الخسران، وكان لهم عذاب عظيم.

وجزاء من استجاب واتّحد وكوّن خير أمة، أنه في نور وأنه مبيض الوجه،

والآخر في ظلمة ويَسْودّ وجهه. قال تعالى: ﴿يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ فَأَمَّا الَّذِينَ اسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ أَكَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَانِكُمْ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ (١٠٦) وَأَمَّا الَّذِينَ ابْيَضَّتْ وُجُوهُهُمْ فَفِي رَحْمَةِ اللَّهِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٦ ـ ١٠٧].

ولقد حذر رسول الله ﷺ أمته من شر الفتن التي ستهب رياحها والتي سيكون الصبر فيها كالقبض على الجمر. وما ذلك إلا لتقوم هذه الأمة بدورها ورسالتها، ولتصون نفسها من الوقوع في تلك الفتن.

عن أبي أمية قال: قلت: يا أبا ثعلبة، كيف تقول في هذه الآية: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَيْكُمْ أَنفُسَكُمْ﴾ [المائدة: ١٠٥]. فقال: أما والله لقد سألت عنها رسول الله ﷺ، فقال: «ائتمروا بالمعروف، وانهوا عن المنكر، حتى إذا رأيت شحًا مطاعًا وهوًى متبعًا ودنيا مؤثرة وإعجاب كل ذي رأي برأيه ـ فعليك بخاصة نفسك ودع العوام، فإن من ورائكم أيامًا الصبرُ فيهن مثل القبض على الجمر، للعامل فيهن مثل أجر خمسين رجلاً يعملون مثل عملكم»(١).

أما نجاة هذه الأمة، فإننا إذا اتجهنا إلى القرآن الكريم وإلى السنة المطهرة ـ على صاحبها أفضل الصلاة والسلام ـ فسنحصل حينئذ على خُلاصة أسباب النجاة للأمة من تلك الفتن المحدقة بها، ومن الأخطار المحيطة بها، ومن الخسران الذي كاد يغرقها. ولقد وضح الله تعالى ارتباط الربح الحقيقي الذي تتمثل فيه النجاة دنيا وأخرى، بالإيمان والعمل، وبالتواصي بالحق والصبر. قال تعالى: ﴿وَالْعَصْرِ (١) إِنَّ الْإِنسَانَ لَفِي خُسْرٍ (٢) إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ﴾ [العصر: ١ ـ ٣].

ففي هذه السورة الكريمة وضح القرآن الكريم للنفس الإنسانية الرابحة مسارين:

الأول: تقطعه من أجل كمال نفسها.

والثاني: من أجل غيرها.

أما ما يتعلق بنفس الإنسان، فهو الإيمان والعمل الصالح. وأما ما يتعلق بالغير،

---

(١) رواه الترمذي وأبو داود بنحوه.

فهو التواصي بالحق والصبر.

و«الحق» هو الأمر الثابت الذي لا سبيل إلى إنكاره، ويشتمل على الخير كله، من إيمان بالله واتباع لكتبه ورسله.

و«الصبر» يكون عن المعاصي التي تتشوق إليها النفس بدافع جبلتها البشرية، ويكون على الطاعات التي يشق على بعض النفوس أن تأتي بها.

ويقول عثمان بن عفان - رضي الله عنه: توفي رسول الله ﷺ فحزن عليه رجال من أصحابه حتى كاد بعضهم يوسوس، فكنت ممن حزن عليه. فبينما أنا جالس وأبو بكر، إذ مر بي عمر، فلم أشعر لما بي من الحزن، فانطلق عمر حتى دخل على أبي بكر فقال: يا خليفة رسول الله، ألا أعجبك؟ مررت على عثمان فسلمت عليه فلم يرد علي السلام. فقام أبو بكر فأخذ بيد عمر فأقبلا جميعًا حتى أتياني. فقال أبو بكر: يا عثمان، جاءني أخوك فزعم أنه مر بك فسلم عليك فلم ترد عليه، فما الذي حملك على ذلك؟ فقلت: يا خليفة رسول الله، ما فعلت. فقال عمر: بلى والله، ولكنها عبيتكم - أي الكبر - يا بني أمية. فقلت: والله ما شعرت أنك مررت بي ولا سلمت علي. فقال أبو بكر: صدقت، أراك والله شغلت عن ذلك بأمر حدثت به نفسك. فقلت: أجل. فقال: فما هو؟ فقلت: توفي رسول الله ﷺ ولم أسأل عن نجاة هذه الأمة ما هو، وكنت أحدث نفسي بذلك وأعجب من تفريطي في ذلك. فقال أبو بكر: سألته عن ذلك فأخبرني به. فقلت: ما هو؟ قال أبو بكر: سألته فقلت: يا رسول الله، ما نجاة هذه الأمة؟ فقال: مَن قَبلَ مني الكلمة التي عرضتُها على عمي فردها علي - فهي له نجاة.

والكلمة التي عرضها على عمه: شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله.

إن طريق النجاة لهذه الأمة إنما يتمثل في الاعتصام بحبل الله والتمسك بالكتاب والسنة ومواجهة الفتن بقلوب عامرة بالإيمان، معتصمة بكلمة التوحيد، مؤدية لحقوق هذه الكلمة، محققة خيريتها على ظهر الأرض كخير أمة أخرجت للناس.

واجب المسلمين في توحيد موقفهم
تجاه التحديات المعاصرة

لقد وحد الإسلام الأمة الإسلامية بتلك العقيدة التي تدعوها إلى عبادة إله واحد لا شريك له. وبتلك العبادات التي تتمثل فيها وحدة صفوفها: في الصلاة خمس مرات كل يوم، وفي الزكاة التي تتوحد فيها مشاعر المسلمين في تعاونهم مع إخوانهم المحتاجين، بما شرعه الله تعالى في أموالهم من حق معلوم للسائل والمحروم. وفي الصيام الذي يوحدهم، حيث يمتنعون عن الطعام والشراب في وقت واحد، ويطعمون ويشربون عند المغرب في وقت واحد.

وفي الحج إلى بيت الله الحرام الذي يتلاقى فيه الناس من كل فج عميق، ويجتمعون بزي واحد وفي وقت واحد، يُلبون إلهًا واحدًا لا شريك له، ويتدارسون في مؤتمر الحج العالمي قضاياهم ومشاكلهم، فجاءت كل تشريعات الإسلام توحد بين جميع المسلمين أفرادًا وجماعات وأممًا وشعوبًا، وجعل الله الغاية من خلقهم من ذكر وأنثى ومن جعلهم شعوبًا وقبائل أن يتعارفوا. قال سبحانه: ﴿يَأَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا﴾ [الحجرات: ١٣]، وقال سبحانه - آمرًا بالوحدة: ﴿وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا﴾ [آل عمران: ١٠٣].

ولنلق الضوء أولاً على حقائق الإسلام في منهجه الرباني، حتى نرى ونوقن أنها حقائق وتشريعات تُوحّد ولا تُفرّق.

موقف الإسلام من الاجتهادات الصحيحة:

إن الإسلام هو دين العلم والمعرفة، يدعو أتباعه إلى المزيد من العلم والثقافة، بل أمر الله تعالى صفوة خلقه وخاتم الرسل بأن يطلب المزيد من العلم، وأن يدعو بذلك: ﴿وَقُل رَّبِّ زِدْنِي عِلْمًا﴾ [طه: ١١٤].

وهو الدين العالمي الذي جاء بالدعوة العامة في الزمان وفي المكان، وبعث بدستوره السماوي الخالد خاتمَ رسل الله ورحمة الله للعالمين، سيدنا محمد ﷺ.

ولعموم الدعوة وخلودها إلى أن يقوم الناس لرب العالمين - اتسم دستورها السماوي، وهو القرآن الكريم، بالعموم والخلود، فنزل تبيانًا لكل شيء ﴿إِنْ هُوَ إِلاَّ ذِكْرٌ لِّلْعَالَمِينَ﴾ [يوسف: ١٠٤].

ولعموم الدعوة وخلودها - تكفل الله تعالى بحفظ دستورها: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ [الحجر: ٩]، فحفظه رب العزة سبحانه وتعالى في الصدور وفي السطور.

ولعموم الدعوة وخلودها - أرسل لها رسولاً هو رحمة للعالمين، لم تختص دعوته بقوم دون قوم، ولا بزمان دون زمان، كما قال الله تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾ [الأنبياء: ١٠٧].

ولعموم الدعوة وخلودها - صان الله تشريعها السماوي من أي دخيل أو مدسوس. فكما تكفل الله تعالى بحفظ القرآن الكريم، تكفل سبحانه بحفظ كل حقيقي وصحيح من الحديث النبوي، ليكون بيانًا للقرآن: ﴿إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ ﴿١٧﴾ فَإِذَا قَرَأْنَاهُ فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ ﴿١٨﴾ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُ﴾ [القيامة: ١٧ - ١٩]، فقيض الله لحفظ السنة النبوية المطهرة رجالاً أمناء عرفوا بالعدالة والضبط والورع وقمة الذكاء، فصانوا السنة النبوية المطهرة من تحريف الغالين وانتحال المبطلين وتأويل الجاهلين.

ولعموم الدعوة وخلودها ـ كانت حقائق التشريع فيها توحد ولا تفرق، وتدعو إلى التمسك بالوحي الإلهي من كتاب الله تعالى ومن سنة رسوله ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ وفي دائرة هذا الوحي المعصوم كان الاجتهاد في الأمور التي لم يرد فيها نص، وكان التفكير الإسلامي من أهل العلم المتخصصين.

ولعموم الدعوة وخلودها ـ كان منهاجها الرباني يتسم بالحكمة والموعظة الحسنة والمجادلة بالتي هي أحسن، فلم تنتشر بالقوة ولا بالسيف، فقد قال تعالى: ﴿لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَد تَّبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ﴾ [البقرة: ٢٥٦]، وقال سبحانه: ﴿وَمَا أَنتَ عَلَيْهِم بِجَبَّارٍ﴾ [ق: ٤٥]، وقال جل شأنه: ﴿لَّسْتَ عَلَيْهِم بِمُسَيْطِرٍ﴾ [الغاشية: ٢٢].

وحين يكون المجتهدون ـ في أمور الدين ـ أهلاً لهذا الاجتهاد، وتتعدد الآراء، فإن الإسلام لا يحجر على رأي ولا يصادر فكراً، ما دام صحيحًا وما دام صاحبه من أهل الاجتهاد، فقد كان رسول الله ﷺ يقر الاجتهاد وتعدد الآراء، تأكيداً لسماحة الإسلام ويسره، وما كان يعنّف أحدًا، فقد روي أن النبي ﷺ قال ـ يوم الأحزاب: «لا يصلين أحدٌ العصر إلا في بني قريظة» فأدرك بعضهم العصر في الطريق، فقال بعضهم: لا نصلي حتى نأتيها، وقال بعضهم: بل نصلي، لم يرد منا ذلك. فذكر ذلك للنبي ﷺ، فلم يعنف واحداً منهم[1].

ومن أمثلة إقرار تعدد الآراء حين تكون صحيحة: نبأ الرجلين اللذين تيمما صعيداً طيبًا، وفي أثناء صلاتهما وجدا الماء، فأعاد أحدهما الوضوء والصلاة ولم يُعد الثاني. فقال النبي ﷺ للذي لم يُعد: «أصبت السنة»، وقال لمن أعاد: «لك الأجر مرتين».

بل كان ينفرد أحيانًا بعض الصحابة باجتهاد في مسألة ما من المسائل أو حال من الأحوال التي تعرض له، وقد يرى البعض اجتهاد هذا الصحابي غريبًا أو مستبعداً، ولكن رسول الله ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ حين يُردّ إليه الأمر يبين لهم الحق فيه، فحين يرى في هذا التصرف أو الاجتهاد وجهًا من وجوه سماحة الإسلام يُقرّه ولا

---

(١) رواه البخاري.

يرفضه، ولا يعنّف صاحبه ولا يتشدد. يقول عمرو بن العاص -رضي الله عنه: احتلمت في ليلة باردة في غزوة ذات السلاسل، فأشفقت إن اغتسلت أن أهلك، فتيممت ثم صليت بأصحابي الصبح، فذكروا ذلك للنبي ﷺ، فقال: يا عمرو، صليت بأصحابك وأنت جنب؟ فأخبرته بالذي منعني من الاغتسال، وقلت: إني سمعت الله يقول: ﴿وَلَا تَقْتُلُوا أَنفُسَكُمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا﴾ [النساء: ٢٩]، فضحك رسول الله ﷺ ولم يقل شيئًا[١].

وهكذا نرى الرسول - صلوات الله وسلامه عليه - كان يقر الاجتهاد الصحيح ويقبل تعدد الآراء، ما دام ذلك في إطار الحق والصواب، وما دام ذلك فيما لم يرد فيه نص، ولم يصادم آية من كتاب الله تعالى، ولا حديثًا صحيحًا من أحاديث رسول الله - صلوات الله وسلامه عليه. بل إن علماء الحديث يعدّون إقرار الرسول ﷺ لعمل أحد الصحابة نوعًا من أنواع السنة النبوية والحديث الشريف؛ لأنهم يعرّفونه بأنه: ما أضيف إلى رسول الله ﷺ من قول أو فعل أو تقرير أو صفة.

وعبْر عصور الإسلام الزاهرة، ما كان سلف هذه الأمة - حين تتعدد آراؤهم - يُلزم أحدهم الآخر برأيه، ولا يكره أحدًا على شيء، فقد روي أن الإمام أبا حنيفة النعمان - رحمه الله تعالى - أنه قال: «هذا الذي نحن فيه رأي لا نجبر أحدًا عليه، ولا نقول: يجب على أحد قبوله بكراهية. فمن كان عنده شيء أحسن منه فليأت به».

موقف الإسلام من الآراء التي لا تكون صحيحة:

وأما موقف الإسلام من الآراء التي لا تكون صحيحة، فإنه ينكرها ولا يقرها، بل لا يقر - ابتداء - أحدًا على القيام بالاجتهاد أو الإفتاء أو الرأي في دين الله إلا إذا كان مزوّدًا بعلوم الاجتهاد والإفتاء، من التفسير وعلوم القرآن والقراءات وأسباب النزول، والحديث وعلوم الحديث، وأسباب الورود، والناسخ والمنسوخ، والفقه، والنحو والصرف، وغير ذلك من العلوم.

ويأمر الله تعالى من لا علم لهم أن يسألوا العلماء المتخصصين وأهل الذكر العارفين، فقال سبحانه: ﴿فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ [النحل: ٤٣].

---

(١) رواه أبو داود والحاكم.

وحذر الإسلام من اتباع آراء من لا علم لهم؛ لأنهم يَضلون ويُضلون، كما قال رسول الله ﷺ: «إن الله لا يقبض العلم انتزاعًا ينتزعه من العباد، ولكن يقبض العلم بقبض العلماء، حتى إذا لم يبق عالم ـ اتخذ الناس رءوسًا جهالاً فسُئلوا، فأفتوا بغير علم، فضلوا وأضلوا»(١).

وإن من لا علم له حين يفتي في دين الله ـ يضله ولا يهديه، ويعرض من يفتيه إلى الهلاك. عن جابر ـ رضي الله عنه ـ قال: خرجنا في سفر، فأصاب رجلا منا حجر في رأسه، ثم احتلم، فسأل أصحابه: هل تجدون لي رخصة في التيمم؟ فقالوا: ما نجد لك رخصة وأنت تقدر على الماء. فاغتسل فمات. فلما قدموا على رسول الله ﷺ، أخبر بذلك، فقال ـ عليه الصلاة والسلام: «قتلوه، قتلهم الله. ألا سألوا إذا لم يعلموا؟ فإن شفاء العيّ السؤال. إنما كان يكفيه أن يتيمم ويعصر ـ أو يعصب ـ على جرحه خرقة، ثم يمسح عليها ويغسل سائر جسده. . .»(٢).

ففي قوله ﷺ: «قتلوه، قتلهم الله» ما يفيد اعتبار الذين أفتوه خطأ فأوردوه موارد الموت، بمثابة القتلة لأخيهم حين أفتوه خطأ بغير علم.

ومن ذلك أيضًا ما رواه أسامة بن زيد، قال: بعثنا رسول الله ﷺ في سرية، فصبحنا الحرقات من جهينة، فأدركت رجلاً، فقال: لا إله إلا الله، فطعنته، فوقع في نفسي من ذلك، فذكرته للنبي ﷺ، فقال رسول الله ﷺ: «أقال لا إله إلا الله وقتلته؟!» قلت: يا رسول الله، إنما قالها خوفًا من السلاح. قال: «أفلا شققت عن قلبه حتى تعلم من أجل ذلك قالها أم لا؟ من لك بلا إله إلا الله يوم القيامة؟» فما زال يكررها حتى تمنيت أن لم أكن أسلمت قبل ذلك اليوم(٣).

ومع اختلاف الرأي، فإن الأمر لا يصل إلى حدّ أن يكفر أحد أحدًا، ولا أن يحكم أحد على المخطئ بالفسق والابتداع؛ لأنه لا يمكن لأحد أن يدخل قلوب الناس وأن يسيطر عليها، فلا يعلم ما في القلوب إلا علام الغيوب، ولا يسيطر عليها إلا الله سبحانه وتعالى الذي خلقها.

---

(١) رواه البخاري ومسلم بنحوه.
(٢) رواه أبو داود.
(٣) رواه البخاري ومسلم وأحمد وأبو داود.

لا تعصب في اجتهادات الأئمة:

لقد كان لأئمتنا - رحمهم الله تعالى - جهودهم التي تذكر فتشكر في مجال الاجتهاد، وكانت لهم آراؤهم المتعددة، والتي قد يختلف فيها بعضهم مع الآخر، ولكنهم في هذا لم يتعصبوا، ولم يلزم أحدهم الآخر برأيه. فقد كانت هناك أسباب عديدة لاختلاف وجهات النظر، من بينها: ألا يكون الحديث قد بلغ بعضهم، أو يكون قد بلغه ولكنه لم يثبت عنده؛ لأن أحد رجال الإسناد مجهول أو متهم أو سيئ الحفظ، أو يعتقد ضعف الحديث باجتهاد قد خالفه فيه غيره، أو يكون الحديث قد بلغه وثبت عنده ولكنه نسيه.

ومن أسباب الاختلاف أيضًا، ما يرجع إلى بعض القواعد الأصولية، كأن يأخذ بعضهم مثلاً ببعض تلك القواعد الأصولية (كالمصالح المرسلة أو سد الذرائع أو الاستحسان أو الاستصحاب أو العرف) ولا يأخذ البعض بهذه القواعد.

ومع اختلافهم في بعض الأحكام، إلا أنهم لم يتعصبوا لآرائهم؛ لأنها لم تكن اختلافات على الأصول، بل في الفروع، كاختلافهم في قراءة البسملة وعدم قراءتها، وفي الجهر بها أو الإسرار، وفي القنوت في صلاة الصبح وعدمه. ولكنهم لم يتعصبوا ولم يلزموا أحدًا بآرائهم، ولم يمنع اختلافهم هذا أن يصلي بعضهم خلف بعض.

فنرى الإمام الشافعي - رحمه الله - يصلي في مسجد الإمام أبي حنيفة قريبًا من مقبرته، فلم يقنت في صلاة الصبح - مع أن القنوت عند الإمام الشافعي سنة - فلما قيل له في ذلك، أجاب قائلاً: أخالفه وأنا في حضرته؟

وعندما أراد الخليفة المنصور أن يلزم الناس بالموطأ، قال الإمام مالك: «يا أمير المؤمنين، لا تفعل هذا، فإن الناس قد سبقت لهم الأقاويل، وسمعوا أحاديث، ورووا روايات، وأخذ كل قوم بما سبق إليهم. فلندع الناس وما اختار كل بلد منهم لأنفسهم». فقال الخليفة: وفقك الله يا أبا عبد الله.

ومن احتياط أئمتنا وتواضعهم ما روي عن الإمام مالك - رحمه الله - أنه سئل عن ثمان وأربعين مسألة، فقال في اثنتين وثلاثين منها: «لا أدري».

وقـال أبو الدرداء ـ رضي الله عنه: «لا أدري» نصف العلم. فـلا يصح لمن لم يُؤت فقهًا في الدين، واستعدادًا في الاجتهاد أن يتجرأ على القول في الدين بغير علم. فأجرأ الناس على الفتوى أجرؤهم على النار. وعلى عامة الناس ألا يسألوا في دين الله تعالى إلا عالمًا متخصصًا، كما قال الله تعالى: ﴿فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لا تَعْلَمُونَ﴾ [النحل: ٤٣].

وهكذا، نهج سلفنا من أئمة المسلمين منهج التثبت في دين الله وعدم التعصب لرأي دون رأي، أو اجتهاد دون اجتهاد، ما دام لم يصادم نصًا من كتاب الله سبحانه وتعالى، أو حديثًا صحيحًا من سنة رسول الله ـ صلوات الله وسلامه عليه.

دعوة الإسلام إلى توحيد موقف المسلمين تجاه التحديات المعاصرة

إن حقائق الإسلام وتشريعاته توحد المسلمين ولا تفرقهم، وإن اجتهادات الأئمة وتعدد الآراء واختلافها ـ أحيانًا ـ إنما كانت في الفروع لا في الأصول. ولم يمنع الاختلاف من وحدتهم وتضامنهم، ولم يكن يومًا مدعاة للتعصب لرأي دون الآخر.

ولما كان للتشريع الإسلامي هذا المنهج، فإن من الطبيعي أن نقدر دعوته لتوحيد موقف المسلمين في كل أمورهم الدنيوية، وفي كل خطاهم وحياتهم، وخاصة تجاه التحديات المعاصرة التي يتعرضون لها.

لقد وضح القرآن الكريم وحدة الأمة ﴿وَإِنَّ هَٰذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاتَّقُونِ﴾ [المؤمنون: ٥٢].

وفي دعوة الإسلام لتوحيد موقف المسلمين تجاه التحديات، يحذر القرآن الأمة الإسلامية من أهم تلك التحديات التي يحاول أعداؤها أن ينشروها بينهم، وهي التي تتمثل في:

الخلافات بين المسلمين: والخلافات أكبر تحدٍّ وأخطر معول هدام يقضي على هذه الأمة.

ومن أجل ذلك ترى أن الاستعمار قبل أن يغادر بعض الدول الإسلامية التي

تحررت ترك حدوداً مصطنعة وترك حدوداً تمثل تنازعًا واختلافًا بين الدول، حتى لا تتحد الأمة، وحتى تظل في خلافات سياسية ودولية فيما بينها.

وإلى جانب الاختلاف على الحدود، راح أعداؤنا يضخمون الخلافات الفقهية التي جرت بين العلماء في بعض المسائل الفرعية. ففي جو الخلاف تضعف الأمة، ويتغلب عليها عدوها، وبهذه الخلافات في الأمور الدينية استطاعوا أن يحدثوا شروخًا بين فصائل الشباب المسلم، ولا شيء أقسى وأخطر من الاختلاف في الدين، إنه اختلاف يتهدد دنيا الإنسان بالأخطار، ويتهدد آخرته كذلك. ولذا اعتبره القرآن خروجًا عن حظيرة الإسلام ﴿إِنَّ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيَعًا لَّسْتَ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ إِنَّمَا أَمْرُهُمْ إِلَى اللَّهِ ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ﴾ [الأنعام: ١٥٩].

والذين يشغلهم الخلاف يهدرون حياتهم دون طائل، ويضيعون أعمارهم من غير فائدة.

ومن بين تلك التحديات ما ينهض به أعداء الأمة من محاولة حصرها في موقف المدافع، لا في موقف المنطلق، وبهذا المخطط الخبيث بثّ أعداؤنا كثيراً من الشبهات التي لا تقع تحت حصر؛ ليجعلوا المسلمين في موقف المدافع عنها وليشغلوهم بها، فانتشرت دعاوى وشبهات حول المرأة في الإسلام، وكون الرجل يأخذ ضعفها في الميراث، وشبهات أخرى حول تعدد الزوجات، وحول الطلاق، وانتشار الإسلام بالسيف أو بالقوة. وكلها شبهات زائفة ولا أساس لها من الصحة، وتعاليم الإسلام ذاتها تحمل الحكم التشريعية العليا، والأسرار الإلهية التي تحمل سعادة البشر، وتحمل العدالة والحق والخير في كل تشريع إلهي محكم. وليس معنى هذا ألا نرد على تلك الشبهات، بل المراد أن نردّ عليها ولكن في صورة القيام على نشر الإسلام وإبراز فضائله ومحاسنه وتشريعاته السمحة، التي كانت من أهم الأسباب في نشر الإسلام واعتناق الكثيرين له عن اقتناع ومحبة.

وهناك تحديات كثيرة، عسكرية وسياسية واجتماعية واقتصادية وصحية وثقافية.

وتتمثل التحديات العسكرية، في الاستعمار وغزوه لكثير من البلاد والدول والأقليات الإسلامية.

وتظهر **التحديات السياسية**، في محاولة نشر المنظمات السياسية التي تفرق الأمة في تناحر وخلافات لا تنتهي.

وتظهر **التحديات الاجتماعية**، في نشر التعامل في المجتمع بتلك التقاليد الوافدة في الأسرة وفي البيئة وفي الزيّ، وفي غير ذلك من المحاولات الاجتماعية.

وتتضح **التحديات الاقتصادية**، في نشر التعامل بالربا ومحاولة تسميته بغير اسمه، ومحاولة استدانة الدول الإسلامية، ووقعها غريقة بالديون التي تضيع معها هيبتها ويهتز معها قرارها.

وأما **التحديات الصحية**، ففي نشر الخمور وتداولها، والمخدرات، والسموم البيضاء، وغيرها من المواد التي تقضي على صحة وعقل كل فرد من أفراد هذه الأمة.

أما **التحديات الثقافية**، فتظهر في الغزو الفكري الذي يمثل أخطر هذه التحديات، والذي يعمل على تغريب هذه الأمة، وتغييب رسالتها التي تقوم بها، بإيقاف المدّ الإسلامي إلى الخارج، وبضربه من الداخل.

وفي محيط هذه التحديات المتعددة، والمحيطة بالأمة من كل جانب - تصاب الأمة بالوهن، وتوشك الأمم أن تتداعى عليها بسبب ضعفها وبسبب الخلافات التي تغرق فيها، كما أخبرنا رسول الله - صلوات الله وسلامه عليه - حين قال: «يوشك الأمم أن تداعى عليكم كما تداعى الأكلة إلى قصعتها. فقال قائل: ومن قلة نحن يومئذ يارسول الله؟ قال: بل أنتم يومئذ كثير، ولكنكم غثاء كغثاء السيل. وليَنزعَنّ الله من صدور عدوكم المهابة منكم، وليَقذفَنّ في قلوبكم الوَهَن. فقال قائل: يا رسول الله، وما الوهن؟ قال: حب الدنيا وكراهية الموت»[1].

وفي مواجهة تلك التحديات لا بد لنا من التمسك:

أولا: بالعقيدة الإسلامية، وهي عقيدة التوحيد التي نؤمن فيها بالله ربّا، وبالإسلام دينًا، وبسيدنا محمد ﷺ نبيا ورسولاً، ونؤمن فيها بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر والقدر خيره وشره، ويتطابق الإيمان مع العمل.

---

(١) رواه أبو داود وأحمد بنحوه.

والتمسك بالإسلام عقيدةً، يستوجب التمسك به تشريعًا ومعاملة وسلوكًا وأخلاقًا. والتمسك بالعقيدة الإسلامية ـ عقيدة التوحيد ـ يجعل من الأمة وحدة واحدة، لا تختلف ولا تتفرق، بل تعتصم بحبل ربها، كما قال جل شأنه: ﴿وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلا تَفَرَّقُوا﴾ [آل عمران: ١٠٣]. والتمسك بعقيدة التوحيد يجمع الناس ويوحدهم، فلا أحد يخرج عن الطاعة ولا يفارق الجماعة. قال ﷺ: «من خرج من الطاعة وفارق الجماعة فمات ـ مات ميتة جاهلية»[١].

ثانيا: أن نتمسك بالقرآن، ونشر تعاليمه ومدارسته، وتطبيق ما جاء به من هداية ومنهج رباني يهدي إلى أقوم السبل.

ولأهمية القرآن الكريم في توحيد الأمة وفي إمدادها بالقوة الإيمانية الكبرى ـ أدرك أعداؤها ما يمثله القرآن من خطر عليهم، فقال المستر «غلادستون» وزير بريطانيا الأول وكبير أعمدة الاستعمار في الشرق الأوسط، قال: «ما دام هذا القرآن موجودًا فلن تستطيع أوروبا السيطرة على الشرق، بل ولا أن تكون هي نفسها في مأمن».

وقال «سيمون»: «إن الوحدة الإسلامية التي تجمع آمال الشعوب السمر، وتعبر عن أمانيهم هي التي تساعدهم على رفض السيطرة الأوروبية والتخلص منها».

ثالثًا: لا بد من تكوين تضامن إسلامي بين جميع المسلمين، وحين يكون للمسلمين ـ على الأقل ـ موقف إسلامي موحد، فإنه لن يكون لتلك التحديات سبيل علينا، بل ستصبح الأمة الإسلامية أكبر الدول والأمم وأقواها وأعزها.

إن هذه الوحدة المنشودة هي التي دعا إليها الإسلام وأكد الدعوة إليها ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾ [الحجرات: ١٣].

ودعا الرسول ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ إلى توحد المسلمين ومعاونة بعضهم لبعض، فقال ـ صلوات الله وسلامه عليه: «المؤمن للمؤمن كالبنيان، يشد بعضه بعضًا. ثم شبّك بين أصابعه»[٢].

---

(١) رواه مسلم.
(٢) رواه البخاري.

وإن على جميع المجتمعات والدول الإسلامية أن توحد موقفها وتتعاون لإنقاذ الأقليات الإسلامية، ومواجهة التحديات العالمية. وعلى جميع الدول الإسلامية أن تمد يد العون لكل البلاد المحتاجة والفقيرة، وتساعد الأقليات، وتخلصها مما يدبره لها أعداء الإسلام، وحتى لا يكون لتيارات الفساد والشر سبيل عليها.

ويوم أن تتحد بلاد العالم الإسلامي وتتوحد على هدف منشود تحقق به خيريتها، وتنتصر لدينها - يوم أن ينصرها الله نصراً مؤزراً، ويمكّن لها في الأرض لتقيم شريعة الله في الأرض، مؤكدة صلتها به، ومقويّة روابطها بالمجتمع، ومدافعة عن دين ربها، آمرة بالمعروف وناهية عن المنكر.

﴿ وَلَيَنصُرَنَّ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴿٤٠﴾ الَّذِينَ إِن مَّكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنكَرِ وَلِلَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ ﴾ [الحج: ٤٠-٤١].

من معالم التضامن الإسلامي

السوق الإسلامية المشتركة

لقد أصبح التضامن الإسلامي ضرورة ملحة تستوجبها أحوال أمتنا الإسلامية الراهنة التي تمر بها، وتحفز إليها تلك المعاناة التي تتعرض لها كثير من دولنا ومن الأقليات في الدول الكثيرة. ولا يكون التضامن قويا إلا باقتصاد قوي، ولا يكون اقتصاداً قويا إلا بتكامل بين الدول، تتبدى أهم معالمه في سوق إسلامية مشتركة.

والناظر إلى الدول الإسلامية يرى أنها تشغل مساحة واسعة من الأرض، وقد حباها الله تعالى بثروات هائلة، كالبترول والمعادن والزروع والثمار. وتتمتع بتربة خصبة ذات خيرات كثيرة. ولقد كان من الممكن لو سارت الدول الإسلامية نحو التكامل والتضامن - أن تغدو أعظم قوة على ظهر الكوكب الأرضي، إلا أن التفكك وعدم الاتحاد والترابط - أفرزا الضعف في بعض دويلاتها والتخلف في بعض مناحيها، ومهّدا للاستعمار طريقه إليها، بينما اتجهت الدول الأوروبية نحو طريق التكامل بقيام السوق الأوروبية المشتركة، مع أنه كان من المنتظر أن يكون الأمر على خلاف هذا؛ لأن الإسلام هو دين الوحدة والتضامن، والدعوة إلى التكامل، يدعو المسلمين إلى أن يسعى بذمتهم أدناهم، وهم يد على من سواهم، ويدعوهم إلى الاعتصام بحبل الله وعدم التفرق. قال الله تعالى: ﴿وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا﴾ [آل عمران: ١٠٣].

ومن أجل هذا نرى أنه قد آن الأوان لإنشاء سوق إسلامية مشتركة تغطي المصالح المشتركة بين الدول الإسلامية الشقيقة؛ حتى تقوى على مواجهة التحديات المعاصرة التي تطالعنا بين وقت وآخر. وفي إمكان الدول الإسلامية أن تقوم بهذه السوق في تكامل اقتصادي يشمل التعاون في المجالات الزراعية

والتجارية والصناعية، ووسائل المواصلات والنقل.

ومن الممكن أن تقوم السوق الإسلامية على التبادل التجاري في الموارد الاقتصادية التي أنعم الله تعالى بها على الدول الإسلامية: زراعية ومعدنية وبترولية وحيوانية. وهي موارد ـ لو تم التنسيق بين دولنا الإسلامية ـ لأقامت بها أعظم سوق إسلامية مشتركة.

ولا يصح أن يقف التخلف أو الفقر عائقين دون قيام التكامل الاقتصادي، فإن الموقع الاستراتيجي الذي تتمتع به الدول الإسلامية، والموارد الاقتصادية، طبيعية كانت أو بشرية ـ من أكبر العوامل للنهوض بقيام هذا التكامل الاقتصادي، الذي يعتبر حجر الأساس في بناء التضامن الإسلامي القوي. ولا بد من أن تتجه الدول الإسلامية إلى قيام هذا التكامل، متخذة طريقها إلى هذا الهدف في أمرين:

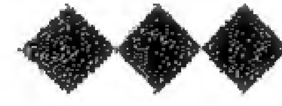
الأول: التغلب على العقبات التي تعترضها، والتحديات التي تقف في طريقها.

والثاني: العمل الجاد والدءوب على النهوض بالتعاون الاقتصادي فيما بينها.

الفهرست

الفصل الرابع

التضامن
فى مواجهة
التحديات



تعيش الأمة الإسلامية مرحلة من أدق مراحل حياتها، وتواجه - في ظل نداءات العولمة أو الكوكبة - تحديات متعددة تستوجب على المسلمين أن يتضامنوا، ليضمنوا البقاء في إطار نظام جديد للعالم يحفل بالمستجدات والمتغيرات. والسبيل واضحة من خلال الوحدة، والتعاون، وضمان الحقوق، وقضاء حوائج الناس، على ألا يقتصر ذلك على أبناء الأسرة أو المجتمع الواحد، بل يتخطاه إلى إقامة التعاون والتضامن بين الشعوب والدول من خلال توثيق العلاقات الإنسانية والاجتماعية، والعلاقات الدولية، ووضع التعاليم الإسلامية لحقوق الإنسان موضع التنفيذ الفعلي.

وهذا الكتاب خطوة في سبيل إلقاء الضوء على مفهوم التضامن الإسلامي، ومجالاته، ودعوة الإسلام إليه، والأسس التي يقوم عليها...



دار الشروق

القاهرة، ٨ شارع سيبويه المصرى - رابعة العدوية - مدينة نصر
ص.ب: ٣٣ البانوراما - تليفون: ٤٠٢٣٣٩٩ - فاكس: ٤٠٣٧٥٦٧ (٢٠٢)
بيروت: ص.ب: ٨٠٦٤ هاتف: ٣١٥٨٥٩ - ٨٠٧٢١٣ - فاكس: ٨١٧٧٦٥ (٩٦١)